جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

شعرية خطاب الرحلة
في السرد المعاصر: "سرد الأتاي"
للكاتب الإماراتي علي عبد القادر أنموذجا

بقلم الدكتور

نايف بن رشدان بن عتيق الهجلة

أستاذ مشارك ـ قسم الأدب والنقد ـ جامعة حائل ـ المملكة العربية السعودية

المجلد السادس والعشرون للعام ٢٠٢٢م

الجزء الرابع (إصدار ديسمبر)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠ / ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

شعرية خطاب الرحلة في السرد المعاصر: "سرد الأتاي" للكاتب الإماراتي علي عبد القادر أنموذجا

نايف بن رشدان بن عتيق الهجلة
قسم الأدب والنقد ـ جامعة حائل ـ المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني : Nrshdan@gmail.com

الملخص

يدور محور الاهتمام في هذا البحث حول دراسة شعرية اللغة وبناء الخطاب في نصّ الكاتب الإماراتي علي عبد القادر "سرد الأتاي" (رحلة خليجي في المغرب)، وسيكون ذلك من خلال بحث مسألة الجنس الأدبي في هذه الرحلة، من حيث أبعاده الفنيّة والدلالية، ذات العلاقة بالشكل والمضمون. وهو ما يعني البحث في مستويات حضور المتخيّل السردي ومحكي تجربة السفر والمشاهدة وأشكال التناص التي من خلالها تكوّن خطاب هذه الرحلة ؛ لنتبيّن من ثمّ كيف طبع محكي الخطاب أسلوب السرد والتخييل، وكيف نقل لنا السارد رؤيته وتمثّلاته للفضاء، لعالم الحياة هناك، عبر لغة، بدت ذات خصائص شعرية (جمالية) سردية، ولقد تعدّدت القراءات في سبر أغوار العالم السردي لخطاب الرحلة، وتضاعفت تأويلاتها، بحثًا عن المعنى ورغبة في الإحاطة بمكوّنات رؤية ذات الرّحالة إلى العالم الخارجي، وجماليات التعبير والتصوير التي امتازت بها شعرية لغة هذا النوع من الخطاب السردي، وهو ما كان دافعًا على صعيد آخر إلى تكثيف نسق العمل على وجوه من حضور الذاتية واختراق المتخيّل السردي ومحكي تجربة السفر والمشاهدة وأشكال التأمّل التي مثّلت مادّة سردية أساسية في خطاب الرحلة. ذلك أنّ التخييل الذاتي قد حضر بقوّة، ليشكّل محكي خطاب الرّحلة ويطبع أسلوب القصّ، ويحدّد ما يرتبط به من رؤى وتصوّرات، بل لعلّه يظهر عبر الاستعمالات المختلفة للغة في أبعادها التداولية أو الحجاجية المكوّنة لنسيج نصّ الرحلة، والمحدّدة لنوع كتابته السردية.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة، تجنيس النصّ، شعرية، تناص، تخييل .

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

The poetics of the journey discourse in contemporary narrative: Narration of Al-Atay by Emirati writer Ali Abdul Qadir is a model

Nayef bin Rashdan bin Ateeq Al-Hajla
Department of Arabic Language, hael University - Kingdom of Saudi Arabia .
Email: Nrshdan@gmail.com

Abstract

The focus of this research is a study of the poetic language and discourse construction in Ali Abdel Qader's text "Sard al-Atay" (A Khaleeji's Journey in Morocco). Which means researching the levels of the presence of the narrative imagination, the narrative of the travel and viewing experience, and the forms of intertextuality through which the discourse of this journey was formed. Let us then see how the narrator of the discourse printed the style of narration and imagination, and how the narrator conveyed to us his vision and representations of space, of the world of life there, through a language, that seemed to have poetic (aesthetic) narrative characteristics, and there were many readings in probing the depths of the world.The narrative of the journey's discourse, and its interpretations multiplied, in search of meaning and a desire to encompass the components of the traveler's vision to the outside world, and the aesthetics of expression and depiction that characterized the poetic language of this type of narrative discourse. Subjectivity and penetration of the narrative imagination and the recounting of the travel and viewing experience and the forms of contemplation that represented a basic narrative material in the journey's discourse. This is because self-imagining has come with force, to form the narrative of the journey's discourse.

Keywords: travel literature, naturalization of the text, poetry, intertextuality, imagination.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

وبعد ،

فقد طُرحت بعمق في خطاب النقد الأدبي المعاصر عامّة وضمن دوائر تحليل الخطاب السردي خاصّة مسألة شعرية كتابة أدب الرحلة، بوصفها كتابة سردية ذات جماليات مخصوصة في البناء واللغة والأسلوب وتعدّد أشكال ظهورها، ومن جهة أخرى تنوّع أساليب إنتاج بنياتها النصيّة، وتعدّد مستويات تشكّلاتها الدلالية. لقد برز نتيجة لذلك العمل المكثّف على طبيعة المكوّنات البنيوية والمعرفية المتحكّمة في إنتاج خطاب الرحلة، والمحدّدة لنوع جنسه الأدبي ومعمارية نصّه السردي وقد اتّخذ له أرضية تحليل الشكل الفنّي لجماليات اللغة السردية ولشروط إنتاج الدلالة، بوصفها تجسيما لحضور رؤية فكرية موضوعية أو ذاتية وجدانية إلى الذّات والآخر والعالم والوجود . وهو ما أفضى إلى ظهور نوع من الاعتراف بتفرد الجنس الأدبي المتصل بكتابة الرحلة، من جهة تميّز فنّه السردي ببنية خطاب اختصّ به.

وقد حظيت نصوص "أدب الرحلة" قديمًا وحديثًا ومع بداية عصر النهضة العربية، بقراءات متعدّدة في منطلقاتها المعرفية ومتنوّعة في أدواتها التحليلية كما اهتمّت في مراحلها المتأخّرة ببحث شكل اللغة السردية، ودراسة خصائص بناء الخطاب وصور دلالته على المعنى، وتمّ التركيز خاصّة على بحث طبيعة الرؤى الفكرية التي يكشف عنها خطاب الرحلة، وتتلفّظ بها ذات

السارد الذي هو عادة ما يكون في خطاب الرحلة الرّاوي المتكلّم، الذي تتخفّى وراءه ذاتُ المؤلّف، ويتمركز قطبًا محوريًا لــ "تعدّد الأصوات"، وعنصـــرًا جاذبًا لأشكال من "الحوارية"، فالراوي السارد فـــي نـــصّ الرحلـــة، يجسّـــد الشخصية المحورية، فيكون مركز تبئير الأحداث ومدار إنشاء خطاب الرحلة، ونقطة البدء في تشكيل عوالمه السردية، عبـــر حبـــك علاقـــة ذاك الـــراوي المشارك بباقي الشخصيات ضمن فضاء الرحلة ممثلا في مجـــالات الســـفر ومشاهدات الرّحالة ومطالعاته، حيث يتشكّل بناء عالم "خطاب الحكاية" مـــن خلال حكي الرّحالة.

أسباب اختيار الموضوع وأهميته :

لقد تعدّدت القراءات في سبر أغوار العالم السردي لخطـــاب الرحلـــة، وتضاعفت تأويلاتها، بحثًا عن المعنى ورغبة في الإحاطة بمكوّنات رؤية ذات الرّحالة إلى العالم الخارجي، وجماليات التعبير والتصوير التي امتازت بهـــا شعرية لغة هذا النوع من الخطاب السردي، وهو ما كان دافعًا علـــى صـــعيد آخر إلى تكثيف نسق العمل على وجوه من حضور الذاتية واختراق المتخيّـــل السردي ومحكي تجربة السفر والمشاهدة وأشكال التأمّل التـــي مثّلـــت مـــادّة سردية أساسية في خطاب الرحلة . ذلك أنّ التخييل الذاتي قد حضـــر بقـــوّة، ليشكّل محكي خطاب الرّحلة ويطبع أسلوب القصّ، ويحدّد ما يرتبط به مـــن رؤى وتصوّرات، بل لعلّه يظهر عبر الاستعمالات المختلفة للغة في أبعادهـــا التداولية أو الحجاجية المكوّنة لنسيج نصّ الرحلة، والمحـــدّدة لنـــوع كتابتـــه السردية ، لذلك فإن من أهم أسباب اختيار هذا الموضوع :

١- أن هذه الدراسة تعد من الدراسات التي تحمل اتجاهاً مغايراً عن سابقتيها منطلقاً وغاية .

٢- الرغبة في إجراء دراسة أدبية من منظور نقدي حديث .

٣- عدم وجود دراسة أكاديمية ــ فيما أعلم ــ تناولت شعرية خطاب الرحلة وفق منهج نقدي حديث .

منهج البحث:

وأما عن المنهج العلمي الذي اتبعته في معالجة الموضوع فقد اعتمدتُ في هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي، والمنهج الفني المتمثل في استقراء النصوص الأدبية المتصلة بأدب الرحلة في سرد الأتاي وتوظيفها فنياً بالاستشهاد على ذلك ، من خلال الرؤى النقدية الحديثة .

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يقسم إلى مبحثين ، تسبقهما مقدمة وتمهيد، وتقفوهما خاتمة فيها أبرز النتائج، وفهرس للمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات، وذلك على النحو التالي:

- مقدمة: وقد تناولت فيها أسباب اختيار الموضوع، وأهميته، وأهداف البحث، ومنهج البحث، وخطة البحث .
- التمهيد : وقد جاء بعنوان (النصّ ومنوال قراءته)
- المبحث الأول : مسألة تجنيس نصّ الرحلة
- المبحث الثاني : شعرية التناص والتخييل ، ويشتمل على محورين :
  - المحور الأول : شعرية التناص
  - المحور الثاني : شعرية التخييل

- الخاتمة : وفيها أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث
- فهرس المصادر والمراجع
- فهرس الموضوعات

وقد جعلت عنوان هذا البحث (شعرية خطاب الرحلة في السرد المعاصر: "سرد الأتاي" للكاتب الإماراتي علي عبد القادر أنموذجا) ، فالله أسأل أن يجعل بحثي هذه من قبيل العلم النافع، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل

التمهيد

النصّ ومنوال قراءته

وفي هذا التمهيد سوف نعمل على قراءة نصّ سردي وضعه الكاتب دكتور / علي عبد القادر، ولم نعثر على أيّ دراسة حوله، وسُمِ بدءا من عتبته النصيّة الأولى بأنّه "أدب رحلة"، واتّخذ له عنوانًا رئيسًا "سرد الأتاي"، وذُيّل بعنوان فرعي مواز، جاء في شكل عطف بيان: "رحلة خليجي في المغرب"(١)، إذن نحن أمام مشروع كتابة نصّ في "أدب الرحلة"، تضمّن ميثاق سيرة ذاتية، اتّخذت شكل رحلة أدبية من جهة النوع المميّز لجنسها السردي، وانعقد مدارها على كتابة تجربة عاشها المؤلّف، وعرفت فيها ذاته تحوّلات في مستوى رؤيا العالم والوعي بنفسها، وقد تجسّم ذلك من خلال تصوير "رحلة خليجي في المغرب". وهو ما قد يجعلها تبدو من دلالتها الأوّلية، وفق ما تومئ إليه عتبة العنوان بمثابة كتابة لـ "سيرة غيرية" ؛ لأنّها عدلت عن نسبة الرحلة إلى ذات المؤلّف، لتضع مكانها ذات أخرى، تبدو للوهلة الأولى غير ذات الكاتب ، إنها ذات "خليجي في المغرب"، غير أنّ تمركز نسق الحكي في متن النصّ حول ذات المؤلّف المتكلّم بضمير الأنا من البدء إلى نهاية مسار زمن السرد آخر نصّ الرحلة يكشف عن ارتباط النصّ بذات المؤلّف علي عبد القادر، ويؤكّد ارتباط مضمون النصّ بإخباره عن رحلته إلى الدراسة بالجامعة المغربية (كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط)، حيث انتهت تلك الرحلة بالحصول على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، عندئذ فكّر في كتابة الرحلة بعد أن وضع لذلك التزامًا ذاتيًّا، جاء بمنزلة ميثاق

١- عبد القادر (علي)، سرد الأتاي، رحلة خليجي في المغرب، دبي، مركز القارئ العربي للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م.

عقده مع القارئ، مضمونه كتابة أطوار الرحلـــة والأحـــداث التـــي عاشـــتها شخصية السارد وتدوين مشاهداتها ومعاودة حكي ما تشكّل في ذاكرتها مـــن آراء وانطباعات عن بلد الدراسة الذي مثّل المجال الجغرافي الحاضن لتلـــك الرحلة، أي فضاء لأحداث القصّة ومادّة حكاية، بوصفه كان مجال المعـــيش اليومي وحيّز الأسفار الذي دارت فيه الرحلة، ودفع إلى إنتاجه سرديًّا، انطلاقا من التزام ذاتي: نصّ عليه الرّحالة المؤلّف، ورد كالآتي: "... أغادر متوجها إلى المطار، حاملا شهادة علم مـــن المغـــرب، وأكتـــب شـــهادة حـــقّ فـــي المغرب" .[١]

يبدو أنّ نصّ هذا الميثاق المقترح ينطوي على دلالات متعدّدة، لعلّ من أهمّها أنّ خطاب الرحلة سيكون مطابقا لسير الأحداث والوقـــائع، وسيصـــوّر مسار فترة من حياة الكاتب، وسيقول الشيء الكثير عنها، في قالـــب خطـــاب سردي اتّخذ جنس أدب الرحلة شكلا فنيًّا للكتابة وصيغة خطابيّة للتلفّظ، ابتغاء تصوير أطوار تلك الرحلة التي كانت من الشارقة إلـــى المغـــرب لغـــرض الدراسة أساسًا، غير أنّ ذلك قاد بالرّحالة إلى تركيز الاهتمام للاطّلاع علـــى جماليات المكان واكتشاف مظاهر الغريب والعجيب فيه من خـــلال تكثيـــف وتيرة الارتحال في المدن المغربية وتأمّل الخصائص المميّزة والأصيلة لنمط العيش فيها، بحثًا عن سحرها وفرادتها العتيقة، دون أن يغفل عـــن محـــاورة عمق امتدادها في التاريخ، ممّا كان له أثره البالغ في نفس الكاتب ووجدانـــه، وقد تجلّى ذلك في طبع فرادة هذا العمل الأدبي وتحديد خصـــائص شـــعرية خطابه السردي، الذي نهض على الجمع بين مقوّمات أدب الرحلـــة وفنيّـــات تأليف السيرة الذاتية أو كتابة الذّات .

١– عبد القادر (علي)، سرد الأتاي، رحلة خليجي في المغرب ، ص ١٥٣.

لقد سعى مؤلّف "سرد الأتاي" إلى عقد علاقة مع القارئ ونصّه متجهًا إلى تحديد مكوّنات الخطاب، وتحديد شكل الجنس الأدبي الذي يحمل المضامين والدلالات، ويُبرز هذا الميثاق في صورة الضرورة لـ"وجود قواعد صريحة، ثابتة ومعترف بها لاتّفاق مشترك بين المؤلّفين والقرّاء، (ذلك) أنّ كثيرًا من النصوص المنشورة لا تحوي أيّ إشارة إلى أيّ عقد صريح"[١] يحدّد هويّة النصّ من جهة الجنس الأدبي ونوع الفنّ.

تدور المحاور الأساسية لنصّ "سرد الأتاي" حول تدوين أحداث تلك الرحلة، وتصوير مسار الدراسة والبحث الذي كان دافعًا رئيسًا إلى محاولة تقديم "شهادة حقّ" – كما وصفها المؤلّف – في المغرب، جاءت مزيجًا من الانطباعات الذاتية والآراء الشخصية التي أرادت أن تكون واقعية إلى أبعد حدّ، لاسيّما أنّ كاتبها جنح إلى استقراء التاريخ ورصد مكوّنات الجغرافيا، وعمل ــ أيضا ــ على استنطاق معالم المدن المغربية من منظور أفق شعري سردي يتناص مع المادّة المعرفية الواردة في أمّهات مصادر تاريخ المغرب والأندلس وإفريقية، وذلك عبر رسم طبوغرافيا وصفية لآثار المدن المغربية ومعالمها التاريخية، ولأسواقها وقصورها وجوامعها وجامعاتها، إذ استرسلت أسفار الرحلة داخل المغرب بدءا من مدينة الرباط وسلا (شالة)، وصولا إلى بني ملال ومرّاكش التي مازالت تحتفظ بعبق حضارة الموحدين وعجيب مظاهر الفنّ وتقاليد الحياة اليومية، ثمّ شرقًا إلى مدينة أفران ذات النمط الأوروبي العصري، فالاتّجاه نحو حاضرة فاس وريثة التقاليد الأندلسية بالمغرب، مدينة الأصالة ومعالم العلم والأدب (من ضمنها جامع القرويين)،

١- لوجون (فيليب)،السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم عمر حلّي، ط١، بيروت، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣م، ص ١٣.

فمكناس، ثمّ وجدة مدينة الخضرة، أيضا تمّ شدّ الرّحال إلى طنجة مدينة الجمال الساحر المطلّ على عمق التاريخ وتعاقب الحضارات، حيث يمتزج سحر الأساطير وعجيب القصص بحكايات أخبار رموز التاريخ وقصّ عظيم أحداثه. وفي سياق سرد أطوار الرحلة كان الكاتب يحاول من حين إلى آخر رصد خصائص ظواهر مغربية اجتماعية ودينية أخلاقية وثقافية، منها: وضع اللغة الدَّارِجة المغربية وخصائصها الصوتية في المستوى الألسني والدلالي، بحثًا عن طبيعة صلتها بالعربية الفصحى، أيضا تطرّق بالوصف إلى أجواء يوم الجمعة وطقوس أيّام شهر رمضان ولياليه، مُظهرًا اهتمامًا لافتًا بتحديد طبيعة روحانية أجواء التديّن وممارسة العقيدة وآداب السلوك الناجم عنها لدى أهل المغرب، كما حاول نقل أجواء مجالس المقاهي، وتصوير عبق تقاليد شرب الشاي الأخضر المسمّى في المغرب بـ: "الأتاي" المغربي، ليختم برنامجه السردي بالحديث عن حركية أروقة الجامعة وروح البحث العلمي؛ ليكشف عن جوانب من ذاك العمق المعرفي الذي تنشده باستمرار أقسام الأدب والعلوم الإنسانية بالجامعات والفضاءات الأكاديمية المغربية .

إنّ هذا التصوّر الإجمالي لمكوّنات خطاب رحلة "سرد الأتاي، الذي تصدّره أعلى صفحة الغلاف تحديد هويّة جنسه الأدبي بوصفه "أدب رحلة" يسرد "رحلة خليجي في المغرب"، يضعنا أمام مجموع إشكاليات معرفية نقدية، تتصل بالمنهج وأدوات القراءة، ذات الصلة برصد الأبعاد الدلالية والكشف عن رؤى العالم وتحديد الشكل الفنّي للخطاب وجماليات الأسلوب. ولخصوصية بنية اللغة السردية الناظمة لنسيج هذا النصّ، يبدو أنّ الصورة الأولى التي نتلقّاها حول معماريته، وفق ما تُفصح عنه عتباته النصيّة ودلالة الميثاق الذي وضعه مؤلّفه أمام قضيّة الجنس الأدبي الناظم لهذا النوع

السردي، من جهة شكل الخطاب السردي وعلاقته بـذات المؤلّـف. حيـث ظهرت لنا فرضية أولى وفق ما يمدّنا به علم السرد (La narratologie) من مفاهيم وأدوات تحليلية، وتتمثّل هذه الفرضية في أنّ هذا العمـل "سـرد الأتاي" يُعدّ "أدب رحلة"، و"كتابة للذات" ضمن خطاب سردي يلتقي فيه "أدب الرحلة" مع "السيرة الذاتية"، ولعلّه يتداخل مع "رواية السيرة الذاتية".

من هنا قد تكون مسألة تحديد الجنس الأدبي ذات وظيفة محورية فـي الكشف عن مقوّمات شعرية الخطاب السردي وحدود التخييل الذاتي في إنتاجه النصّي وتشكّل دلالاته ذات الصلة برؤى الذّات الكاتبة وأبعادهـا الفكريـة، انطلاقا ممّا يشير إليه مضمون نصّ الميثاق الذي عقده المؤلّف، وبحسب مـا تحيل إليه عتبات الأثر وسائر النصوص المصاحبة من دلالات ومعان.

لقد تبيّن لنا أنّه يمكن أن نختزل تلك الإشكاليات والقضايا التي يطرحها الخطاب الأدبي لنصّ "سرد الأتاي" في ثلاث مسائل محورية جامعة، يكـون تفصيل القول فيها انطلاقًا من متن اللغة السردية لنصّ "سرد الأتاي". يتعلّـق أوّلها بقضيّة التجنيس أي تحديد نوع الجنس الأدبي المميّز لهذا النصّ وضمن أي ضرب من كتابة الرحلة يندرج، وهو ما يقتضي بحث وجوه صلته بكتابة الذات أو رواية السيرة الذاتية، ويتّصل ثانيها بشكل شعرية التناص، إذ ترتبط المادّة المعرفية والسردية التاريخية المكوّنة لأحد أبعاد نصّ "سـرد الأتـاي" بمتون من التاريخ والتراث، استقى منها المؤلّف ما دمجه في نسـيج نصّـه، وشيّد عبر ضرب من التناص معه خطابه السردي . أمّا ثالثها فيرتبط ببحـث فرضية حضور شعرية التخييل، بوصفها أحد أبرز مظاهر جمالياته . إذ تبيّن لنا أنّ أدبية هذا النصّ لا تكمن في مطابقة الحكاية لواقع الأحـداث، ولا مـا اعتبره المؤلّف "شهادة حقّ"، وإنّما في تنوّع مستويات ذاك التفاعل النصّي مع

مصادر التاريخ، وعبر بحث أوجه حضور "المتخيّل السردي" وإدراك حجم دوره في تشكيل شعرية الخطاب السردي، ومن ثمّ تشييد معمارية نصّ رحلة "سرد الأتاي"، دون أن نسقط في معارضة مكوّنات المادّة السردية بأصول توثيقها، ممثّلة في ما ورد ضمن مصادر الكتابة التاريخية من أخبار .

يبدو أنّ الإيفاء بإنجاز هذه المسارات الثلاثة في الدراسة والتحليل يشترط حتما توضيح أهمّ خصائص منوال المنهج وأدوات القراءة التي سنعتمد عليه :

لقد أضحى من البدهي أنّه لم يعد هناك منهج فريد ونموذجي وجامع، يمكن أن يميل إليه الباحث في قراءة النصّ، بوصفه شكلا ومضمونًا، دلاليّا وجماليّا، ويقصي ما دونه من المناهج الأخرى. كما لم تتمّ البرهنة بعد على وجاهة العمل تحت مظلّة المنهج التكاملي أو القول بفكرة التكامل بين المناهج، إذ التكامل ينتهي غالبًا إلى ضرب من التلفيق غير المتوازن، وقد يؤدي إلى قراءة عامّة أو مبتورة، تغلّب جانبًا على آخر في اشتغالها على متن النصّ. في هذا السياق بدت فرضية المنوال أو البراديغم (paradigm) التي تعني التركيب المحكم لأدوات قراءة وبنيات معرفية لمفاهيم مستقاة من مناهج ونظريات مختلفة، يمكن أن تتضافر وتترابط على نحو من التماسك بحسب طبيعة النصّ المقروء في مستوى بنية الشكل الفنّي ودلالة الخطاب على المعنى فكرة ذات أكثر جدوى وفاعلية في التعامل مع النصّ، وتبدو قادرة إلى حدّ ما على فهم دلالات لغة النصوص وإدراك مستوياتها الفنيّة والجمالية.

كيف ذلك؟

من المعلوم أنّ المناهج النصيّة المعاصرة ذات المنحى الألسني البنيوي الشعري، تلك التّي يتمحور اشتغالها على اللّغة بوصفها مادّة النصّ ومظهر خطابه، قد تأسّست أوّلا من خلال إنجاز قطائع ذات طابع ابستمولوجي (علمي

معرفي)، مع المناهج السياقية (التاريخي، الاجتماعي، النفساني)، وتولّدت ثانيًا من التنظير لنماذجها العلميّة المؤسّسة استنادًا إلى أهميّة اكتشافات المعــارف المجاورة كاللّسانيات وبلاغة الخطاب وعلوم النصّ، حيــث تــمّ بخصــوص القوانين المتحكّمة في شروط إنتاج العمل الأدبــي مــدى أهميّــة الاســتخدام الجمالي للغة وتركيبها في اتّجاه إنتاج الدلالة وتوليد الفن، وتعدّدت تبعًا لــذلك اتّجاهات النقد وتنوّعت سياقات التنظير لها ضمن ما صار يصطلح عليه بــ: "المناهج النصيّة"، (الشعرية، البنيوية، الســيميائيات، الســرديات، جماليــات التلقّي، نظريات الاتّصال الأدبي ومفاهيم البلاغة الجديدة بوصفها علمًا جامعًا لأدوات القراءة وتحليل الخطاب...)، وللإشارة فإنّ مدار المنــاهج النصــيّة يتحدّد بالاشتغال على المتن اللغوي للنصّ، بوصف اللغة تمثّل المادّة الأساسية لإنشاء العمل الأدبي، بحسب عبارة بارت Barthes، ومركز الفنّ ومظهــر شعرية الخطاب وحامل الدلالة. لقد أمسى كلّ منهج في دائرة النقــد الحــديث وعلوم النصّ يمثّل إبدالا معرفيًّا أي منوالا لنموذج في القراءة والتحليل يتكوّن من مجموع مفاهيم وقوانين علميّة ينتظمها نسق معرفي يفسّر نمــط اشــتغال اللّغة وسيرورة تشكّل معمار النصّ (بنية الخطاب) في مستوى الفنّ والدلالة، وهو ما يعني أنّ البراديغم يظهر بمثابة النموذج المعرفــي الجــامع لمجمــل عناصر متماسكة ومبادئ مترابطة فيما بينها، تشكّل مجمل بناء النظام النظري للمنوال بما هو إبدال، يشمل أدوات ومفاهيم تحدّد مسار اســتراتيجية قــراءة النصّ وتحليل الخطاب، من جهة قضايا الدلالة وأبعادها الفكرية، ومســتويات جماليات اللّغة والأسلوب وخصائص بنية الخطاب.

وسنخوض غمار هذه التجربة في تحليل نصّ "سرد الأتاي"، دون تحيّز كلّي لأيّ من أدوات المناهج المعاصرة أو الحماس لتطبيقها حرفيًا، ذلك أنّنا ندرك جيّدًا أنّه من الضروري أن يعي كلّ ناقد أو باحث في الــنصّ العربــي

مدى أهميّة أن يتكيّف السياق التداولي لاستخدام مناهج النقد في النظريات المعاصرة، وأدوات القراءة والتحليل بحسب خصوصية روح اللّغة العربية، ويتوافق وطبيعة السياق الحضاري والاجتماعي للنصّ العربي وشروط التعبير ضمن خصائص العربية وأفقها الثقافي. وهنا أمكن موافقة الرأي القائل إنّه لئن بذل النقّاد ومنظّرو الأدب من العرب جهدًا مهمًّا في "نقل المفاهيم وتعريب المقولات، إلّا أنه (...) علينا تطويره، بالسعي إلى تطوير المنهج وإخصابه عن طريق التعامل مع الإبداع (...) لا باعتباره مجالا للاختبار المنهجي، بل بالنظر إلى خصوصيته الإبداعية والثقافية".(١)

وسنعتمد في إنجاز هذا السياق مفهومًا إشكاليًا، جسّم ذاك التداخل والتشاكل ما بين أجناس النصوص الأدبية وغيرها من النصوص الأخرى، ونعني "التفاعل النصّي" (intertextualité)، الذّي صار استخدامه مكثّفًا ومجديًا في تحليل النصوص، وفي الكشف عن خصائص بنياتها الجمالية، وقد تولّد التناص نتاجًا لذاك التواصل المعرفي القائم على تبادل مظاهر التأثير بين اللّسانيات ونظريّة الأدب والشعريّة البنيوية والسيميائيات وعلوم النصّ، ومداره على أنّ إنتاج أي نصّ يكون بالضرورة وليد عناصر ومقاطع مستقاة من نصوص أخرى، تمتدّ حاضرة بصفة متخفيّة في المستوى العميق لبنية الخطاب والدلالة أو بصفة ظاهرة في شكل مقاطع وجمل محدّدة المادّة النصّية، ويمكن اعتباره البذرة الأولى لـ "التفاعل النصّي"، أو "التناص"، جاءت مع أعمال ميخائيل باختين من خلال تنظيره لفكرة "الحواريّة" (Dialogisme)، وتعدّد الأصوات (polyphony literature)، وتطوّر التنظير لها مع كرستيفا.

١- الباردي (محمد)، نقد الرواية العربية، تونس، بحث منشور ضمن أعمال ندوة "نقد الرواية"، قابس – تونس، ٢٠١٥م، ضحى للنشر، ص ٢١

المبحث الأول

مسألة تجنيس نصّ الرحلة

لقد مثّل أدب الرحلة جنسًا سرديًّا عصيًّا على التحديد، وأحاطت بقراءته وتحليله إشكاليات متعدّدة، تتّصل في مجملها بمشكلة تحديد هويّة العمل الأدبي وضبط السبل الواضحة لإدراك القوانين المتحكّمة في تشكيل شعرية نوع فنّه الأدبي وذلك لخصوصية بنيته النصية، إذ كما يذهب إلى ذلك جيرار جنيت، فإنّ تجنيس الأثر من قبل المؤلّف، ووضعه على الغلاف أو في إحدى العتبات النصيّة لا يكتسي صبغة تقريرية ملزمة، لأنّ عملية تجنيس النصّ تظلّ من مهام القارئ/ الناقد، الذي يرجع إليه وحده إمكان قبول تحديد المؤلّف أو رفضه، ومن ثمّ إعادة تصنيف التأليف ضمن نوع الجنس الأدبي الذي يوافق خصوصية بنية خطابه(١). هذا رغم أنّه ليس هناك خصائص فنيّة ومبادئ أنموذجية محدّدة في تعريف الجنس الأدبي، إذ هو بحسب تودوروف أفق نصّي للكتابة، ومجموع لخصائص نصيّة وأسلوبية وبنائية في التعبير، وتنظيم إنتاج الخطاب وتأليف عناصره ترتبط بتصوّر الزمن والمكان وبنية الشخصية والمنظور السردي وهيكل العمل (معمار النصّ)(٢). ومن ثمّ فإنّ أقصى ما تمّ التوصل إليه في هذا الغرض هو أنّ الجنس الأدبي عبارة عن "مقولة تجمع بين عدد معيّن من النصوص، حسب معايير مختلفة وترسي في الوقت نفسه قواعد لقراءة هذه النصوص وتأويلها"(٣). وهكذا فمدلول مفهوم

1- Genette. Palimpesetes. Paris.Ed. Seuil. 1983. P 11

٢- انظر: تودوروف، الأجناس الأدبية، ترجمة نجوى الرياحي القسنطيني، تونس، المجلة العربية للثقافة، تصدرها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الألكسو، العدد ٢٨،/ ١٩٩٥م.

٣- معجم السرديات، ص ١٣٠

الجنس الأدبي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمسار قــراءة وتحليــل، عمــادة تبويــب النصوص الفردية وتجمعيها في أجناس محدّدة، استنادًا إلى خصائص السمات المميّزة لها. ذلك أنّ الأدب ليس ركامًا من النصوص المفرد، بل نتاج ينشــأ نتيجة "لما بينها من علاقات، فليس بالإمكان أن نتصوّر نصًّا أدبيًّا ما خــارج أفق أجناسي به"[١]. من هنا تبدو وجاهة الرأي الذي يعتبر أنّ الجنس الأدبــي "بمثابة عنصر بؤري للأثر الأدبي، يحكم ويحدّد ويغيّر العناصر الأخرى، كما يضمن تلاحم البنية. (إذ) ما يبقى جوهريًا، في كلّ التعاريف المعتمــدة هــو اعتبار الجنس طبقة من النصوص تجمع بينها سمات مشتركة" .[٢]

من هنا أمكن القول إنّه لئن تبدو مهمّة رسم المعــالم المحــدّدة لهويــة الجنس الأدبي إشكالية ومترامية الأطراف، فإنّها لازمة في هذا المقام الخاصّ بدراسة نصّ "سرد الأثاي"، على مستوى شعرية خطابه وأبعاده التخييلية الفنيّة التي انفرد بها بوصفه نصًّا يدوّن مسار "رحلة خليجي في المغرب"، ذلك أنّــه من اليسير "قراءة أيّ مصنّف أو مؤلّف قراءة تعزله عن النصوص الأخــرى وتكتفي بمعالجته في ذاته، لكن ما أصعب هذه القراءة حين تستهدف الوقــوف على الأبعاد الجنسيّة أو النوعية للنصّ. وتزداد هذه الصعوبة عنــدما يكــون الجنس أو النوع المبحوث فيه ذا ملامح خاصّة، لم تعالج في أدبيات سابقة" .[٣]

ضمن هذا الأفق الإشكالي يمكن الاشتغال على دراسة الخصائص الفنيّة والمكوّنات البنيوية الأساسية المميزة للشكل الأدبي الخــاصّ بــنصّ "ســرد

١- م. ن، ص. ن.

٢- الداهي (محمّد)، شعرية السيرة الذهنية، الدار البيضاء، فضاءات مســتقبلية، ٢٠٠٠م، ص١١.

٣- يقطين (سعيد)، من مقدّمته لكتاب الدّاهي (محمد)، شعرية السيرة الذهنيــة (المرجــع السابق)، ص ٨.

الأتاي"، وهو الذي تفيد عتباته النصيّة الأولى أنّه "أدب رحلة"، لكن من أيّ نوع هذه الرحلة؟ وأيّ مقوّمات فنيّة انتظمت خطابها السردي؟ وهل تندرج ضمن شكل من أشكال رواية السيرة الذاتية؟ لاسيّما أنّها ارتبطت بتصوير مسار مؤلّفها وأطوار ارتحاله من الخليج العربي (الشارقة) إلى بلاد المغرب للدراسة وطلب العلم، حيث رصد السارد ما قبل الرحلة أي الدراسة بالشارقة، وهو ما يعني أنّه انطلق من تجربة الذات لتوليف عوالم الحكاية، عبر توظيف مخزون الذاكرة، والانفتاح على نتاجات المتخيّل السردي، في محاولة لتبئير مادّة القصّ، المتعلّقة بما قبل الرحلة وما بعدها. وقد دلّ على ذلك قول الكاتب: "لم تكن مجرّد محاضرات أكاديمية، تلك التي التزمت بحضورها في جامعة الشارقة أثناء الدراسة التحضيرية للماجستير في اللغة العربية، بل كانت أكثر من ذلك بكثير..."[١]. من هنا يمكن أن يُطرح السؤال، كالآتي: إلى أيّ حدّ ارتبط نصّ "سرد الأتاي" بوصفه "رواية سيرة ذاتية" ، نهضت على تصوير "رحلة خليجي إلى المغرب"، بالخصائص المحدّدة للخطاب السردي لـ "رواية السيرة الذاتية" ؟، حيث قامت بنيته النصيّة على دمج شكل الرواية ومكوّناتها البنيوية في نصّ "السيرة الذاتية" من جهة كونها "حكي استعادي نثري، يقوم به شخص واقعي، عن وجوده الخاصّ، وذلك عندما يركّز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته، بصفة عامّة"[٢]. ولهذا أمكن القول إنّ السيرة الذاتيّة "تعدّ من أبرز أشكال كتابة الأنا وأمتنها صلة بفنّ السرد"[٣]، إذ هي تنفتح على الشكل الفنّي المميّز للرواية، وتتخذ منه إطارًا خطابيًا للحكي والتعبير.

١- عبد القادر (علي)، سرد الأتاي، ص٦.
٢- لوجون، السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ الأدبي، ص٢٢.
٣- معجم السرديات، ص ٢٦٠.

تعلّقت المادّة السردية لنصّ "سرد الأتاي" في بعدها الدلالي أساسًا بـ "أنا" المؤلّف، فصوّر حركتها وتحوّلات وعيها، ودوّن رؤاها الذاتية، بدءًا من الدراسة بالشارقة ووصولا إلى المغرب، حيث كان انفتاح الذات على واقع خارجي جديد للحياة اليومية في المدن المغربية، ولما اختصّت به من معالم، تبعًا لهذا يمكن من المشروع القول إنّ مؤلّف "سرد الأتاي" كسر الحدود بين الأجناس الأدبية، ممثلة في: "أدب الرحلة" و"رواية السيرة الذاتية" و"كتابة الأنا" أو الذّات"، واستطاع أن يؤلّف بينها، في ضوء ما منحه التخييل الذّاتي من طاقة إنشاء، تحكّمت في إنتاج شكل الخطاب السردي الناظم لبنية هذا النصّ.

قد يبدو هذا الاستنتاج وجيهًا ومطابقًا لشكل العمل وبنية خطابه السردي، لكن البرهنة على حضور ذلك، تمرّ حتمًا من خلال مقوّمات بنيوية وسردية أساسية لهذا العمل، وعبر الكشف عن الشكل الفنّي لجنس الرحلة الذي اعتمده المؤلّف والتزم به إطارًا أو شكلا فنيًّا للكتابة.

إذا احتكمنا إلى مقاربة تنطلق من البحث في سيميائية عتبة العنوان بوصفه "مفتاحًا إلى عالم النصّ ودالا على أسرار عوالمه"(١)، نجد علي عبد القادر قد أوقف عمله "سرد الأتاي" على "أدب الرحلة"، وتدرّج في الإفصاح عن ذلك من الخاصّ إلى العام، وفق الترتيب الوارد على الغلاف: "أدب الرحلة"، ثمّ جاء عنوان رئيس ذو حجم كبير اتّخذ شكل الخط المغربي: "سرد الأتاي"، ثمّ عنوان فرعي "رحلة خليجي في المغرب"، ليجيء على إثر ذلك البناء السردي لفصول العمل وعناصره على شكل بناء تزامنيّ في أغلب أقسامه، حيث تمّ رصد أطوار الرحلة وتعاقب لحظاتها بدءًا من دراسة

١- مفتاح (محمّد)، دينامية النصّ، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٨٧ م، ص ٧٢، ٩٢.

الماجستير في الشارقة، ووصولا إلى المغرب والتسجيل لدراسة الدكتوراه للشروع في الدراسة والبحث ثمّ كان الانفتاح على الواقع الخارجي لبلاد المغرب، من خلال تكثيف حركة الرحلات الاستطلاعية إلى مدنها وحواضرها، بالتوازي مع تنشيط سبل التواصل مع الأشخاص، للقرب من أسرار معيشها اليومي، بحثًا عن الفريد والمدهش العجيب.

على هذا النحو تبدو رحلة "سرد الأتاي مميّزة على المستوى الفنّي السردي بميزتين ترتبط إحداهما بالأخرى:

أوّلا: أنّها اتّخذت من الشكل الأدبي إطارًا لها يحدّد نوع خطابها السردي، ومن ثمّ فنصّها يتجاوز الدائرة العامّة للشكل، حيث يكون غرض كتابة الرحلة أو الكتابة الرحلية ذا خصوصية غير أدبية بالمعنى الدقيق الخالص لفنّ الأدب، ذلك أنّها يمكن أن تندرج ضمن أغراض معرفية علمية: تاريخية دينية جغرافية. معنى ذلك أنّ "سرد الأتاي" رحلة أدبية اتّخذت منظور ذات السارد وشعرية القصّ وجمالية الوصف أفقا للتأليف، لذلك مثّل الانتساب إلى مجال السرد عاملا أدى إلى اعتبارها "كتابة تسمح للتصنيف أن يأخذ مشروعيته في خانة الأدبي، فيما هناك نعت آخر يكتفي بالحديث عن هذا الشكل باسم الرحلة فقط، بهدف فتح نافذة إضافية أخرى على التاريخ، واعتبار الرحلة مصدرًا غميسًا، وسجّلا اتنوغرفيا (يمكن) الرجوع إليه أساسًا في حقل الأنثروبولوجيا، ومادّة جغرافية يُجزم الجغرافيون بأنّ ولادتها كانت من رحم الحقل الجغرافي. وفي خضّم هذا التراوح جاء نعت الأدب الجغرافي باعتبار الأوصاف التي رسمت عمران المدن والبلدان"[1]. ولئن تناص خطاب رحلة

١- حليفي (شعيب)، الرحلة في الأدب العربي: التجنيس...آليات الكتابة.. خطاب التخييل، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، ط١/ ٢٠٠٦م، ص ٤١، ٤٢.

"سرد الأتاي" مع مصادر تاريخية – كما سنرى – فإنّه ظلّ إنتاجًا أدبيًا سرديًا خالصًا، لكون منطلقه الأساس محاولة تشييد "كتابة للأنا"، تمتح مادّتها من التخييل الذّاتي، ضمن بنية نصّ تحاول إنشاء شعرية للخطاب السردي مظهرها حبكة اللغة والأسلوب.

ثانيا: ارتباط البرنامج السردي لنصّ هذه الرحلة "بأنا" مؤلّفه في مستوى التجربة الذاتية، ووفق ما يدلّ عليه غرض الرحلة (الدراسة والتحصيل العلمي)، غير أنّه تجاوز ذلك إلى محاولة استرجاع للماضي وكتابة للذاكرة تنفعل بأسرار المكان، ممّا جعل من نصّ "سرد الأتاي" عملا أدبيًا سرديًا، تحضر فيه بكثافة عناصر التخييل الذّاتي ومقوّمات شعرية السرد والخطاب، وذلك على عكس ما تختصّ به كتابة الرحلة ذات الأغراض والوظائف الأخرى (سفارية، جغرافية، دينية، علمية خالصة، حجيّة...). معنى هذا أنّ طبيعة المقصد تحدّد شكل العمل وتطبع أسلوبه ومن ثمّ تحدّد نوع بنية خطابه، ومن شأنها أن تتحكّم في دلالاته، ذلك أنّ "مشاهدات صاحب رحلة السفارة– بحكم منزلته في الدولة والمهمّة السياسية التي أرسل من أجلها– لا تتعدّى مشاهدة الأوساط الحكومية في البلد الأجنبي. وقد سجّل لنا التاريخ عددًا من هذه الرحلات ليس لها سوى أهميّة وثائقية..." .[١]

لقد جاء نصّ "سرد الأتاي"، رغم أنّه كتب بعد إتمام زمن الرحلة العلمية إلى بلاد المغرب لإكمال الدراسة وإعداد الدكتوراه – بمثابة كتابة سردية لتجربة السفر الخاصّة والمتحرّرة من كلّ قيد رسمي أو التزام دبلوماسي

١– المرّاكشي (محمّد صالح)، مفهوم الرحلة خلال كتاب محمّد بيرم الخامس "صفوة الاعتبار"، تونس، مجلة، حوليات الجامعة التونسية، العدد ١٧، جانفي، ١٩٧٩م، ص٢٣٢.

أو إداري وقد اتّخذت شكل خطاب رحلة، انطلقت في مستوى الزمن التاريخي بعد تنظيم إجراءات السفر إلى المغرب، من خلال إشراف السفارة على الاتصال الأوّل بالجامعة، حيث بدت "متعاونة إلى أقصى حدّ، والموظّف المكلّف بشؤون الطلّاب رجل طيّب"(١)، وكانت بداياتها الأولى منذ التقاء الرّحالة بالمشرف على الرسالة - الذي رغم صرامته الأكاديمية - بدا ليّنًا حسنًا في تواصله، إذ طلب خطّة البحث منذ اللقاء الأوّل، في حين أراد صاحب الرحلة ذاك اللقاء "لمجرّد التعارف"(٢)، وبعد الاتّفاق على موضوع الرسالة، صار علي عبد القادر حرًّا طليقًا، حيث لم يلتزم بأيّ نشاط أو ارتباط رسمي من جهة المواعيد والإجراءات إلى أن حان تاريخ المناقشة، إذ كان اللقاء العلمي وبدت توجيهات الأستاذ المشرف، الذي قال له: "كن مستعدًّا بعقلك ولسانك، دافع عن أطروحتك، نم جيّدًا، حتّى تحافظ على هدوء أعصابك، رُدّ على الأساتذة بأدب، ولا تشغل نفسك بأيّ تفاصيل أخرى، بعد المناقشة خذ شهادتك وغادر لتخدم بلدك"(٣). بهذا يتّضح لنا كيف أنّ نصّ "سرد الأتاي"، قد كتب بعد انقضاء زمن الرحلة ، وهو ما يعني أنّه "نصّ لاحق"، كتب تدوينًا لتجربة سابقة، نصّ أنتجته "ذات" المؤلّف وصفًا وتدوينًا لأطوار السفر وما ارتبط به من مشاهدات وأحداث شكّلت مسار الرحلة، وهو من ثمّ سرد استرجاعي، قام على استدعاء أحداث ووقائع وتنقّلات ومشاهدات حدثت في فترة زمنية مضت من حياة ذات السارد التي ظلت متداخلة بذات الكاتب، حكمها منظور سرد وصيغة حكي استرجاعي، لم تلتزم دقّة

١- عبد القادر، سرد الأتاي، ص، ١٦.
٢- نفسه، ص، ٢٥.
٣- نفسه، ص١٥٢.

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

كرنولوجية في تزمين أطوار الرحلة والتنقّلات عبر المدن، ولم تتكلّف أمـر تحديد مدّة السفر بين مدينة وأخرى أو فترة الإقامة فيها – إلّا نادرًا – وبصفة عرضية، جاءت على شاكلة تبئير داخلي للحركة والتنقّـل داخـل حواضـر المغرب. مثلا تطرّق السارد إلى مدّة الوصول من الرباط إلى مرّاكش (بـلاد ابن تاشفين)، فذكر قائلا: "كان خياري صعبًا جدًّا، فالطول الزمني يصل إلى ساعتين..."[١]، وعند قصّ حدث رحلته إلى فاس، أفاد المروي له أنّه: "بعـد مسيرة ساعتين أو أكثر من المشي المتهمل وراء المرشد المتعجل وصلنا إلى جامع القرويين"[٢]. معنى ذاك أنّ "رحلة خليجي إلى المغرب"، لم تكتب "بشكل محايث للرحلة"[٣]، وكلّ ما تمّ تحديده هو الإطار الزمني العام لأطوار الرحلة من بدء الدراسة والسفر إلى المغرب عام ٢٠٠٧م وإلى سنة ٢٠١٠م، تاريخ إتمام الدراسة والحصول على شهادة الدكتوراه. ومن ثمّ فكتابة نصّ الرحلـة جاءت أدبية لا تاريخية، ولهذا حضر فيها بكثافة الذاتي والتخييلـي، وأثّـر كلاهما في صياغة الخطاب السردي الخاصّ بهذه الرحلة والمتحكّم في استعادة زمنها، ولعلّه من خلال تداخل تلك المستويات الخاصّة بصيغة السرد وصياغة الخطاب تشكّلت عناصر شعرية هذا النصّ السردي.

إن انتساب نصّ "سرد الأتاي" إلى جنس "أدب الرحلة" مـن شـأنه أن يجعل منه نصًّا سرديًا ومن ثمّ خطابًا أدبيًّا يشتمل علـى خصـائص بنيويـة ولسانية (تلفظية) معيّنةـ ذلك أنّ "خطاب الرحلة" يجيء بمثابة عملية "تلفـيظ

١- عبد القادر، سرد الأتاي ، ص٦٤.

٢- نفسه، ص٨٠.

٣- حليفي (شعيب)، الرحلة في الأدب العربي، ص٤٥.

لفعل الرحلة"[١]، حيث يختلف خطاب الرحلة الأدبية عن الخطابات المجاورة له، تلك التي تقوم على أساس فعل الرحلة، لكنّها تستثمر جوانب منها، وتوظّفها في خطاب مختلف، حيث تساعد شعرية خطاب الرحلة عبر بنية اللغة السردية، على "تقديم عوالمها ورصد جزئياتها وتفاصيلها"[٢]، ويكون عبر تشكيل شعرية في السرد، تصنع فرادتها الأدبية، وهو ما يمكن أن نلحظ صداه في نصّ "رحلة خليجي في المغرب" لعلي عبد القادر، حيث تجاوز المؤلّف مجرّد النقل أو خطاب التقرير، ليفسح المجال للسارد المبئر لنسق الحكاية وحركة السرد، بوصفه مركز الحكاية ومدارها، لينتج خطابًا سرديًا، عن ذاته وعن المكان؛ في تاريخه وراهنه الحاضر، في كلياته وجزئياته وتفاصيله اليومية، حيث رصد أسراره المدهشة في طرافتها أو غرائبيتها، وهكذا أمكن القول بخصوص مقوّمات نسق السرد في خطاب الرحلة على حدّ عبارة يقطين: "لمّا كان خطاب الرحلة يتمحور حول ذات (شخصية)، وهي تتحرّك في الفضاء نجد خطاب الرّاوي – الشخصية (المحور)- هو الخطاب الإطار، فهو الذي به يُفتتح خطاب الرحلة، وكلّما تقدّمت هذه الذات في الانتقال، كلما تراجع خطاب الراوي – الشخصية لفائدة الراوي – المبئر. ولمّا كان خطاب الرحلة يقوم على أساس الانتقال في المكان، (فإنّنا) نجد حضورًا أساسًا للراوي المبئر"[٣]. ولهذا نجد صاحب رحلة "سرد الأتاي"، يتحدث عن ذاته وعن المكان الذي ظلّ يحاول باستمرار إعادة تشكيله فضاءً سرديًا، ليستعيد أهمّ ملامح تاريخ المدينة، عبر إنشاء أهمّ معالم سردية خطاب الرحلة،

١- يقطين (سعيد)، خطاب الرحلة، مجلة علامات في النقد، يصدرها النادي الأدبي الثقافي بجدّة، سبتمبر، ج٩، م٣/ ١٩٩٣م، ص ١٦٦.
٢- نفسه، ص١٦٨.
٣- يقطين، خطاب الرحلة، ص١٧٧.

وتشكيل عوالمها، على صيغة بدت متماهية مع ذات الكاتب، بوصفه الـراوي المحور والسارد العليم، المتكلّم الرئيس، الذي تمرّ عبر صوت ذاتـه سـائر الأصوات الأخرى، الممثّلة للشخصيات الثانويـة المسـاعدة أو الشخصـيات الهامشية التي تتحدّد أدوارها بحسب طبيعة السياق أو المقام. وقد بأّر السـارد لأدوارها وأقوالها، انطلاقًا من وجهة نظره الذاتية، ورؤيته إلى العالم والواقع، وأدرج ذلك في مستوى إنتاج دلالة الخطاب على المعني وتصـويره لعـوالم الرحلة.

بهذا يصبح مؤلف الرحلة ساردًا حاكيًا عن المدينـة وتاريخهـا وعـن الجامعة وأجوائها العلمية، وعن ذاته موضوعًا، بوصـفها محـورًا لخطـاب الحكاية المكون لنصّ الرحلة، بدءًا من طور الدّراسة بجامعة الشارقة ثم إلـى الرحلة إلى المغرب وصولا إلى العودة إلى الشارقة، "فهذا الراوي يكون حاكيًا وموضوعًا للحكي، فيكون حاكيًا عندما يصف، ويكون موضوعًا للحكي عندما يسرد، وبهذا يقدم معرفة (حيث) يرصـد الـرّاوي المبئّـرُ العـالمَ الفضـاء الموضوعي، وهو منه على مسافة قد تبعد، وقد تقرب، بواسطة الوصف كبنية خطابية صغرى...".[١]

وعلى ذلك أمكن لنا أن نستنتج كيف أنّ نصّ "سرد الأثاي" – من جهـة مكوّناته البنيوية– يبدو نصّ "أدب رحلة"، لاشتماله على المقوّمات السـردية الخطابية لأدب الرحلة، من جهة صيغ الحكي والوصف واستعادة ذاكرة المكان وجوانب من تاريخه. وهنا يصير من الممكن طرح السؤال المتعلّق بإمكـان نسبة نصّ "سرد الأثاي" إلى رواية السيرة الذاتية، أوإلى جنس "السيرة الذاتية"، أو إلى ما يُصطلح عليه بـــ: "محكي الحياة"، أو لعلّه قطعة من سيرة ذاتيّة!

١- يقطين، خطاب الرحلة، ص١٧٤.

إذا وجدنا أنّ نسق الحكي في خطاب "سرد الأتاي" يمتدّ من دراسة مرحلة الماجستير إلى إنهاء الدارسة ببلاد المغرب في حكي عن الذات وإخبار عنها، يراوح بين ذلك ووصف المكان والإخبار عن تاريخه، ويهتمّ برصد تطوّر الوعي بالذّات والعالم وتحوّلات الواقع والأشياء، ناظرًا في أثر ذلك في الذّات الساردة، فإنّ "رحلة خليجي في المغرب" التي عبّر عنها السارد، وبدت لصيقة بذاته وبنيته النفسية شكلا من أشكال رواية "تيّار الوعي"، - بوصفها نمط كتابة سردية - ينهض على تقنيات مخصوصة تمكّن "المروي له من الاطّلاع المباشر على الأفكار الحميمة التي تعتمل داخل شخصية من شخصيات نصّ تخييلي أو أكثر. وهذه الأفكار القريبة من الّلاشعور تعبّر عنها الشخصية بصفة سابقة لكلّ تنظيم منطقي، أي في حالتها الناشئة بواسطة جمل مباشرة ومختزلة، بحيث توفّر الإحساس بأنّها كلّ ما يرد على الخاطر" .(١)

غير أنّه لا حاجة مجدية عند التعسّف على ما تحيل إليه "المتعاليات النصيّة" المكوّنة لعتبات نصّ "سرد الأتاي"، وخطابه الدائر حول قصّ حكاية "رحلة خليجي في المغرب"، واعتباره "رواية" أو "سيرة ذاتية". لقد جاء تبئير "سرد الأتاي" ضمن دائرة جنس "أدب الرحلة"، من جهة بنية السفر والتنقل ما بين البلدان والرغبة في تدوين المشاهدات واسترجاع تاريخ المدن وذاكرة الأمكنة مع البحث باستمرار عمّا يربط ذاك التاريخ المليء بالأحداث وعطاء الحضارة والثقافة براهن المدينة وإيقاع حياتها اليومي، وهو ما يعني تشكيل فضاء سردي خاصّ بنصّ الرحلة بوصفها رحلة أدبية. وتبدو هذه السمة الأدبية التي كانت وراء شعرية الوصف والحكي حاضرة منذ بداية إنتاج "خطاب الحكاية". فبعد استقراره بالعاصمة للدراسة ينفتح الرّحالة على

١- معجم السرديات، ص ١٢٦.

فضاءات المدينة ليحكي شيئًا من التاريخ بلغة شعرية، تستعيد فيها الذات تاريخ المكان انطلاقا من ألق الحاضر، وقوّة تأثيره في ذات السارد التي تريد أن تبأّر معالم المدينة استنادًا إلى مرجعية تاريخية تمتح منها عبر أسلوب شعري حالم في أغلب الأحيان، مثال ذلك: "في الرباط كلّ شيء ينطق بلسان حضاري مبين، خلوة علمية لمن أراد أن يعيش التاريخ، وفي الرباط خريطة طريق لمن أراد أن يعبر الجغرافية (...) وفي الرباط مشهد رائق لمن أراد أن يرى الجمال (الّذي) بدا ساحرًا أخّاذًا، تحلّت به المدينة، وجمعت مظاهره عبر قرون متعدّدة"[١]. ثمّ يقدّم إفادة تاريخية: "اُختيرت (الرباط) عاصمة للدولة الموحدية في القرن الثاني عشر الميلادي، ثمّ بعد ذلك عاصمة للمملكة المغربية المعاصرة"[٢]. لعلّ توظيف الحقائق التاريخية في أسلوب أدبي شعري ذاتي – كذلك القفز على مراحل من التاريخ وقيام الدول وزوالها من العهد الموحدي إلى حكم العصر الحديث – يعدّ من سمات شعرية أسلوب السرد، ومن خصائص خطاب الرّحلة الاستعادي الذي لم يتم إنتاجه بالتوازي مع حدث الرحلة أو عبر محايثة لحظاتها وأطوارها، حيث تمّ إبداع خطاب الرحلة بصفة بعدية، يحكي أخبار الذات ويصوّر تفاعلاتها مع المكان، وينفتح على التاريخ من منظور رؤية الذات. ولئن تطرّق الكاتب إلى أهم أطوار تاريخ بلاد المغرب والأندلس، فإنّه كثيرا ما يقفز على التاريخ أو يحذف أطوارا، ويطيل الوقوف عند مراحل زمنية معيّنة ارتبطت بدول دون أخرى، أو قصص إنشاء معالم محدّدة (مسجد حسّان، معالم مرّاكش، جامع القرويين بفاس، مغارة هرقل بطنجة، عين اسردون).

١- عبد القادر، سرد الأتاي، ص٣٤.

٢- نفسه، ص، ن.

بهذا تبدو خصائص الجنس الأدبي لرحلة "سرد الأتاي"، "مؤطّرة بعناصر ومكوّنات، إذ توجد مستويات من "الاشتراك بين الرحلات في مجموعة من القيود والمتغيّرات تتلوّن بحب العنصر التيماتي المهمين"[١]. معنى هذا أنّ نصّ الرحلة الأدبية "نصّ مفتوح لا يمكنه أن يتسيّج في خانة محدّدة، تجنّسه بصفة معيّنة، أو تضيّق من تحرّره واتّساعه وانتشاره"[٢]. وجنس أدب الرحلة فنّ سرديّ جامع لأنواع كثيرة، منفتح على تقنيات أجناس كتابة سردية متداخلة ومتجاورة، منها السيرة الذاتية وراوية السيرة الذاتية والمذكّرات. وقد جاءت في هذا المقام الخاصّ بنصّ "سرد الأتاي" بمثابة شكل فنيّ من أشكال كتابة الذّات – في بعدها الذهني النفسي ومن خلال تصوير حركية نسق السفر في تحوّلاتها المختلفة – ورصد ما ارتبط بها من تحوّلات في مستوى تشكّلات الوعي دلّت عليها بنية سرد خطاب الرحلة، ومن ثمّ جاءت كتابة الذات – في هذا المقام – في شكل "تسجيل استعادي صادق لعمر (أو على الأقلّ لعدد من أعوامه)، وللخبرات والأفعال والتفاعلات، وتأثيراتها الفورية والبعيدة المدى في الشخص"[٣]. وقد لاح الحضور اللّافت للأنا المتكلّم محور الحكي متماهيا مع أنا السارد المبئر لنسق الحكي، ذلك ما يظهر مثلا من استرجاعه لذكرى مقاعد الدراسة بالشارقة قائلا: "... وهو ما أحسست به في أوّل محاضرة لي في الجامعة، ولأنّي لست ممّن يعنى بمشاهدة التلفاز فلم أكن أعرف عن (الأستاذ فاضل) السمرائي شيئا"[٤]، كذلك حكيه الاسترجاعي

١- حليف (شعيب)، الرحلة في الأدب العربي، ص ٤٤.
٢- نفسه، ص. ن.
٣- الغامدي (صالح معيض)، كتابة الذات، بيروت، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي،٢٠١٣، ص١٥.
٤- عبد القادر، سرد الأتاي، ص ٦.

عن وجوه من حضور الرأي الذاتي والرغبة في إبراز وجاهته، حين يذكر في شكل استدراك، قائلا: "أمّا التتلمذ على يد حسام النعيمي في دراسات لغوية وبيانية وصرفية ونحوية وفقهية... فهذا أمر لا أراه يغادر العقل والوجدان"(١). ويظهر حضور أنا السارد، من خلال تصوير علاقة الكاتب بزملاء الدراسة: "أحسست بزملائي يرمقونني، ويستثقلون مداخلتي، ويطلبون سكوتي"(٢)، وقد كان ذلك تعبيرا عن رفض لرأي أدلى به المؤلّف في شروط تفسير القرآن الكريم: بالمأثور أو بالرأي. وتواصل هذا الحضور المكثّف للأنا في فضاء أمكنة بلاد المغرب، وهو ما يظهر من قوله: "إنْ قُدّر لي أن أنصح زائر المدينة العتيقة، فلا أجد نصيحة أفضل من السكن فيها"(٣)، وإنْ نصحت بالأكل في فاس –وأنا بالأكل المغربي خبير– إنّي أنصح بالبسطيلة"(٤). ومن منظور الذّات يبئر السارد ظواهر معيّنة ويصدر أحكاما ويدافع عن مواقف ووجهات نظر معيّنة: "إنّني أزعم أنّ المرأة المغربية أكثر تقبّلا وإتقانا للهجة الأخرى – خليجية كانت أو مصرية– فسرعان ما يستقيم لسانها على اللهجة فتتحدّث بها، فلا تكاد تميّز المرأة المغربية عن المصرية أو الإماراتية"(٥)، ونجده في مقام آخر يقول: "شخصيا أرى الجمعة المغربية مميّزة في أربعة طقوس، كنت أشاهدها وأحياها وأتلذّذ بها، ولذا فإنّي كنت أنتظرها بفارغ صبر"(٦). ونراه لذلك ينسّق مقاطع الحكي: "أبدأ بما كنت أتلذّذ به، وأثنّي بما

١- عبد القادر، سرد الأتاي، ص ٧.
٢- نفسه، ص، ن.
٣- نفسه، ص ٨٢
٤- نفسه، ص. ن.
٥- نفسه، ص ١١٧.
٦- نفسه، ص ١٢١.

كنت أشاهده، واختم بما كنت أرى فيه الحقيقة. الأولى فهي أنّ يوم الجمعة هو اليوم الوحيد الذي تقدّم فيه المطاعم أكلة الكسكس، وهي أكلة مغربية أصيلة، مشهورة في كامل بلاد المغرب العربي"(١). بهذا يلتقي قصّ مشاهدات الذات وتنقلاتها بالكشف عن أراء وانطباعات شخصية ذات قيمة حضارية أو اجتماعية تتصل بالدين والذوق والأخلاق.

بهذا يتبيّن لنا كيف أنّ نصّ "سرد الأتاي" مثّل شكلا من أشكال الكتابة عن الذات ضمن جنس أدب الرحلة، وهو بمعنى ما "سيرة ذاتية"، من الصعب اعتبارها "رواية سيرة ذاتية"، لعدم انبناء فصولها ضمن إطار الشكل الفنّي للرواية من فصول وحركة برنامج سردي روائي متخيّل، حيث إنّ "أهمّ ما يميّز التخييل الذاتي من الرواية السير ذاتيّة، أنّ الشخصية الرئيسة في الرواية السير ذاتية شخصية تخييليّة لا تطابق بينها وين المؤلّف، لكنّ المؤلّف لا ينفكّ يقرّب بينها وبينه، ويعقد أواصر قرابة وتشابه معها، أمّا في التخييل الذّاتي فإنّ الشخصية الرئيسة متطابقة في الهويّة مع المؤلّف، غير أنّ ما تعيشه في القصّة من أحداث، وما تتخذه من مواقف بعيدان عن سيرة المؤلّف وما عاشه في الواقع المرجعي""(٢). إنّها كتابة تخييلية للذّات رغم تشاكلها مع الواقع ومع ما عاشته أنا الكاتب وشهدته، وهذا شأن "سرد الأتاي" التي هي ليست "رواية سيرة ذاتية"، بقدر ما هي رحلة واقعية حدثت من الشارقة إلى المغرب لغرض الدّراسة، ورد فيها من حقائق الواقع وأحداث التاريخ الكثير، واعتمد مؤلّفها أسلوبا شعريا محوره المركزي كتابة الذّات الساردة، ورصد تمثّلاتها لفضاء الرحلة، وهنا يمكن القول إنّ هذا التأليف يندرج ضمن ما بات يصطلح عليه

١- عبد القادر، سرد الأتاي، ص ١٢٠.
٢- معجم السرديات، ص٧٩.

"بالأدب الشخصي أو الكتابة عن الأنا أو الأشكال السيرية"(١) حيث يقع التركيز في مثل هذا الجنس الأدبي "على دور الإنسان المتكلّم في سرد تجربته الشخصية بأشكال مختلفة والتحدّث عن ذاته لبواعث شخصية، ودوافع اجتماعية"(٢)، وهو ما وجدنا نماذج دلّت عليه في نصّ "سرد الأتاي".

كما طبعت هذا الشكل من الكتابة مظاهر مختلفة لشعرية الخطاب السردي، حضرت في مستوى التخييل ونسيج أسلوب اللغة السردية، سواء عبر استعادة الماضي أو عند وصف الأمكنة واسترجاع جوانب من تاريخها، وهو ما سيكون موضوع المبحث القادم من هذا البحث.

١- الدّاهي (محمّد)، الحقيقة الملتبسة: قراءة في أشكال الكتابة عن الذّات، الدّار البيضاء، شركة النشر والتوزيع الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٧م، ص ١٠.

٢- نفسه، ص. ن.

المبحث الثاني :

شعرية التناص والتخييل

ويشتمل على محورين :

المحور الأول : شعرية التناص

المحور الثاني : شعرية التخييل

توطئة :

لقد جاء نصّ "رحلة خليجي في المغرب" المندرج تحت عنوان مركزي "سرد الأتاي" كتابة شعرية عن الذات، تنفتحّ على الواقع الخارجي لفضاء المدن، وعلى تطلّع لافت لإدراك ميزات عمران بلاد المغرب وتمثّل خصائص جغرافيتها، تراوح بين هذا وذاك، ويتناص أسلوب إنشائها مع مصادر التاريخ، إذ يدمج مادّتها المعرفية في نسيج نصّه، ويستلهم من مخزون الذاكرة الجماعية، يمتح من مخيالها وأساطيرها الكثير ليدمجه في بنية خطابه السردي. معنى هذا أنّه يتعالق نصيًّا مع التراث والتاريخ والأساطير ومحكي المخيال الشعبي، ليعيد السارد وفق منظور الذات ورؤيتها إلى التاريخ والأشياء وتصوّرها لوقائع الأمور، إنشاء تعريفات، وتقديم إفادات تحيط بتاريخ مدن المغرب وذكر أخبار عمرانها مع تركيز الكلام على الجزئي والهامشي، وأحيانًا يطيل الكلام في وصف المعالم الأكثر شهرة، ويدقّق في استعادة تاريخها ومجدها، ويرصد ــ انطلاقًا من وجهة نظر الذّات المتلفّظة ــ ظواهر بدت له متفرّدة، أو إنّها ظلّت تقاوم الزمن لتبقى قائمة . لهذا بُني الهيكل العام لنصّ الرحلة على شاكلة خطاب رحلة جغرافي حضري في ظاهره لقيامه أساسًا على الوصف، غير أنّ هاجس المعرفة التاريخية حضر بقوّة، واستبدّ بذات المؤلّف من خلال تناص بعيد المدى مع مصادر التاريخ

والذاكرة الشفاهية، متعدّد المستويات السردية ذات الصلة بجوهر الحكاية ومقاصد الذّات الساردة، ذلك ما يشرّع لنا وجاهة البحث في شعرية التناص بوصفه آلية للكتابة والتعبير، حيث طبعت إنتاج الخطاب السردي لنصّ "سرد الأتاي"، وقد اشتغلت هذه الآلية بالتوازي مع كتابة ذات المؤلّف عبر ضرب من التخييل الذّاتي انفتح على التاريخ والذاكرة الجمعية ومخزون الأسطورة، حيث بأّر كلّ تلك المعطيات والعناصر والإفادات ضمن برنامج سردي ذي شعرية محدّدة المعالم، دلّت عليها عتبات العنوان والنصوص الموازية، ووسمتها – أيضا – العتبات التي تصدّرت كلّ قسم من أقسام رحلة "سرد الأتاي". ولئن كنّا قد بيّنا أعلاه وجه دلالة عتبات العنوان من جهة تحديدها لشكل الجنس الأدبي على خصوصية "سرد الأتاي" بوصفه نصًّا يندرج ضمن الكتابة الرحلية، وأساسًا "أدب الرحلة"، فإنّ اعتماد شكل خطاب سردي ينفتح على كتابة الذات التي استقامت عبر ضرب من "التخييل الذاتي" اتّخذ من مسار الذات محورًا له في الكتابة وفي رؤية الأشياء، تمّ من خلال انفتاحه على مصادر التاريخ مضامين الأساطير المتداولة التي احتفظت بها الذاكرة الجماعية، وظلّت تُحكى لتمنح المعنى وتفسّر التاريخ تعبيرًا عن أشكال متحوّلة من علاقة الإنسان بالطبيعة والحضارة والمعمار والثقافة.

يجدر بنا هنا أن نقدّم نموذج تعريف- ولو مقتضبًا – لـ "التخييل الذاتي"، يمكن أن نتّخذه منطلقًا معرفيًا لإدراك مظاهر تشاكله مع ضروب التناص ومستويات التعالق النصّي بحثًا عن حجم وظائفه في إنشاء متن "سرد الأتاي" – بوصفه عملا أدبيًا قام على تداخل فنّي في مستوى الشكل والأسلوب – يوصل ما بين أجناس أدبية مختلفة (أدب رحلة، سيرة ذاتية، محكي الجياة، كتابة للذات). لقد كان الروائي الفرنسي سيرج دوبروفسكي أوّل من ابتكر هذا

الاصطلاح "وأثبته على الصفحة الرابعة من غلاف روايته "خيوط" – الصادرة سنة ١٩٧٧م – معتبرًا ذلك تعيينًا للجنس الفرعي الذي أدرج فيه روايته تلك من جهة – وردًّا من جهة ثانية على فيليب لوجون الذي استبعد "أن يكون في تاريخ الرواية، نصّ روائي قائم على ميثاق تخييلي صريح يحمل فيه البطل اسم المؤلّف، ولقبه. فكان إصداره (...) محاولة منه لسدّ هذا الفراغ الذي لاحظه لوجون، ولإثبات أنّه يمكن أن يتطابق البطل والروائي في الاسم مع ذلك يظلّ النصّ تخييليًّا"(١). وقد قام الدليل على أنّ هذا النزوع التخييلي يحضر بقوّة في الخطاب المنتج، حتّى وإن ادّعى المؤلّف أن خطابه يطابق سير الأحداث والوقائع، إذ المقام مقام أدب لا تاريخ وسرد لا دراسة اجتماعية أو نفسانية تحاكي صرامة مناهج الطبيعيات والعلوم الدقيقة، وتبحث عن حقائق الأشياء، فمقام كتابة الذّات مقام فنّ إذ هو في دائرة السرد أدخل، وهو ألصق بالذّات المبدعة بوصفها إحساسًا جميلا بالأشياء وتعاملا شعريًا مع اللّغة وعوالمها، عبر انزياحات ومستويات عدول تتخذ شكل التركيب الاستعاري والإبدالات النصية والأسلوبية صيغاً، وفي معرض ذلك يخترق التخييل كلّ أشكال الإنشاء والاتصال والكتابة، حيث يتّخذ النصّ الأدبي سمة اللغة الرمزية والبنية المجازية الدّالة، ممّا يجعلها منفتحة على كلّ ضروب القراءة والتأويل والإنتاجية النصيّة الدّالة – التي وإن زعمت أنّها تقول الحقيقة، فهي تقولها رمزًا ومجازًا – عبر أساليب حجاجية تطوّع اللغة وتتخفّى ضمن سياقاتها وأبنيتها وفق نسبية بعيدة الغور في عوالم النصّ وجماليات التعبير، ومن المعلوم أنّ هذا المشكل، المتعلّق بقضيّة قول حقيقة الأشياء قد طرح داخل

١- معجم السرديات، ص ٧٨، ٧٩.

الخطاب الروائي، ومن ثمّ ظهرت مسألة العلاقة بين "الرواية والتاريخ"[١]، حيث تبيّن أنّه من الصعب أن تكون الرواية كتابة للتاريخ حتّى وإن استندت إلى مصادره والتزمت حقائقه واعتمدت ذكر أزمنة أحداثه، إنّها لا تعدو – في هذا المقام – إلّا أن تكون "تخييلا للمرجعي". كما طُرح المشكل نفسه عند تناول قضيّة كتابة السيرة الذاتية وعلى الأخصّ السيرة الذهنية[٢]، إذ من الصعب أن تعود الذات على ذاتها لتستعيد على نحو من الدقّة ولتكتب وقائع الماضي وتعيد تجسيد كلّ تحوّلات الوعي وانطباعات الذات عن الواقع كما هي .

١- انظر: القاضي (محمّد)، الرواية والتاريخ، دراسات في تخييل المرجعي تونس، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، دار المعرفة للنشر، ٢٠٠٨م. راجع كذلك: أقلمون (عبد السلام)، الرواية والتاريخ: سلطان الحكاية وحكاية السلطان، بيروت، لبنان، دار الكتاب الجديدة، ٢٠١٠

٢- انظر: الداهي (محمّد)، شعرية السيرة الذهنية، ص٢٣ وما بعدها.

المحور الأول : شعرية التناص

يمكن تفريع مادّة الحكي المكوّنة لنصّ "سرد الأتاي إلى قسمين، على نحو يخالف تسلسل ترتيب المادّة السردية المكوّنة لمحاور كلّ قسم، كما وردت في نصّ الرحلة:

الأوّل: يبدو بمثابة – مادّة لرحلة جغرافية – في مستوى دلالتها الأولى وإيحاء شكل بنائها الخارجي، وهو ما تكشف عنه عتبة العنوان؛ إذ بدت دالّة على حواضر المغرب، وارتبطت بتسميات المدن والأماكن: "كازبلانكا"، (لفظة اسبانية) بمعنى الدّار البيضاء – "رباط محمّد الخامس" – "قصبة الأوداية"، "شالة: درّة الرباط وبقايا إرث الرومان وآل مرين"، "بلاد ابن تاشفين" (مرّاكش)، "فاس ومكناس وإيفران"، "طنجة"، "وجدة حاضرة الشرق"، "المدن الملوّنة". وقد تشكّلت المادّة السردية للكلام في مميّزات هذه المدن ووصف خصائص معمارها وعمرانها، نتيجة لرحلة السفر إلى تلك المدن المغربية وزيارة معالمها والتعرّف إلى تاريخ مآثرها القديمة والجديدة، في مستوى أوّل، ومن خلال تناص متعدّد المستويات والأشكال التراثية التاريخية أو الاجتماعية الشعبية التي تنهل من الأسطورة والذاكرة الجماعية، في مستوى ثان.

لهذا الاعتبار خصّص القسمين الأوّل والثاني من متن الرحلة لتحديد وجهة السفر، بدءًا: "شرقًا...من الشارقة"، ثمّ "غربًا...إلى المغرب"[١]، تلي ذلك فصول السرد المشكّلة لهذا القسم، فجاء بعضها متعلّقًا بخصائص الفضاء الذي إليه شُدّت الرحلة، من جهة الثقافة وخصائص بنيات الوعي الاجتماعي والنخبوي، وهي كمايلي : "مؤتمر أدب الرحلة"، "الدّارجة المغربية"، "الجمعية

١- عبد القادر، سرد الأتاي، صص ٥- ١٦.

المغربية"، "رمضان في المغرب"، "الجامعات المغربية". في حين تعلّق البعض الآخر بوضع ذات السارد وبأشياء ومسائل مرتبطة بها بصفة مباشرة، جاءت كالآتي: "عائلة إمارتية في المغرب"، "الأتاي"، "الشهادة".

وهذا يعني أنّه بالتوازي مع استدعاء التاريخ ومحاورة صفحاته من خلال الحديث عن معالم مدن المغرب، وعبر توظيف الأسطورة والانفتاح على مخزون الذاكرة الجماعية، قد تولّد الحكي وتشكّلت عوالم السرد، بدءًا من تشكل أطوار "رحلة خليجي في المغرب"، التي جاءت عنوانًا فرعيًا، ورد شرحًا وبيانًا لعتبة العنوان الرئيس "سرد الأتاي".

وإذا أردنا أن نبيّن أنموذجًا لذلك، ألفينا الرّحالة علي عبد القادر ينطلق في جولاته واستطلاعاته ومشاهداته التي كانت فاتحتها مدينة الرباط، لينظر في عظمة أسوارها ومعالمها ورباطها الذي استمدّت منه المدينة تسميتها، وتتجاوز تأمّلات الرّحالة الوقوف على الأطلال إلى الحفر في تاريخ المدينة على نحو من الدّقة انطلاقًا من تناص سردي مع ما ورد في أمّهات مصادر تاريخ المغرب والأندلس؛ فيتكلّم عن نشأة المدينة وعظمة ساحة حسّان التي يتوسطها مسجد حسّان، وقد كانت، مازالت "مئذنته الشهيرة شاهدًا حيًّا على أكبر مشروع عمراني قام به الموحّدون على عهد السلطان يعقوب المنصور، حيث تدلّ المئة عمود المحيطة بالصومعة على أنّ ساحة حسّان، كانت ستصبح أكبر جامع في العالم الإسلامي في عهد عظمة الإمبراطورية الموحدية التي امتدّت حدودها إلى تونس وإسبانيا، لكنّ هذا المشروع الطموح توقّف بعد وفاته سنة ١١٩٩م، كما تعرّض للاندثار بسبب حدوث الزلزال ..... سنة ١٧٦٦م"[١]. لقد جاء هذا الكلام في نشأة المدينة انطلاقًا من اتّخاذ

١- عبد القادر، سرد الأتاي، ص ٣٤.

صومعة مسجد حسّان نقطة تبئير لذكر خبر النشأة والتطوّر متداخلا مع استنتاجات السارد حول مصير الصومعة، الذي لولا وفاة السلطان الموحدي، واندثار مشروع الدولة الموحدية وتوقف مدّه، والزلزال الذي ضرب المنطقة عام ١٧٦٦م، لما شيُّد على أحسن هيئة.

ومن خلال التوظيف الشعري للمادّة التاريخية – نجده قام على الحنين إلى أمجاد الماضي وعبق المكان – يستعيد السارد حدث بناء أسوار الرباط، حيث رأى – انطلاقًا من إحساس وجدانيّ عميق – أنّ هذه الأسوار هي التي "تنبئك عن بناة الممالك والدول، فالسور الموحدي بناه السلطان يعقوب المنصور الموحدي ... ويمتدّ من الغرب حتّى جنوب مدينة الرباط... كما تتخلله خمسة أبواب ضخمة (باب العلو ، باب الحدّ، باب الرواح، وباب زعير)، أمّا السور الأندلسي فقد شيّد على عهد السعديين من طرف المورسكيين، يقع على بعد ٢١م تقريبًا جنوب باب الحدّ..."[١]. وعند تطرّقه إلى الحديث عن "قصر الأوداية أبرز المآثر التاريخية في العاصمة المغربية الرباط"[٢]، يبيّن كيف أنّه هو "الشاهد التاريخي على دول وحضارات سادت ثمّ بادت"[٣]، إذ يرصد أهمّ التحولات الكبرى التي عرفها المغرب في ظلّ هجرات الأندلسيين ممن يصطلح عليهم بالمورسكيين، أولئك المسلمون الأندلسيون الذين أجبروا على اعتناق المسيحية وترك الديانة الإسلامية مقابل تكلّم الإسبانية لغة القشتاليين آنذاك، ثمّ وقع تهجيرهم إلى بلاد المغرب العربي. يقول علي عبد القادر: "حينما طرد الأندلسيون من إسبانيا استقرّوا في

١- عبد القادر، سرد الأتاي، ص٣٥.
٢- نفسه، ص ٣٨
٣- نفسه، ص ٣٩.

بلاد المغرب على موجات متلاحقة بين القرنيين الثالث عشر والرابع عشر، وجاءت أولى هذه الموجات عام١٢٣٩م، وكانت تضمّ مهاجرين من بلنسية وأنحاء أندلسية أخرى، وضمن الموجة الأخيرة وصل آلاف الموريسكيين الذين طردوا بقرار من الملك فيليب الثالث عام ١٦٠٩م ليستقرّوا في القصبة وسلا، وحينها وجدوا القصبة دون سكّان فاستوطنوها، وأعادوا إليها الحياة بعد أن دعموها بأسوار محصنة. وهذا ما يفسّر الأسماء الموريسكية التي تحملها أزقة القصبة، مثل: ملين وبيرو وتريدانو..."[١]. هذه إفادات تاريخية دقيقة، تعدّ عادة من عمل المؤرّخين المختصين - وقد جاءت مختصرة - ونتاج تناص مع أمّهات المصادر التاريخية دون تنصيص على ذلك، والناظر في هذه الإفادات المتصلة بنشأة الرباط وتطوّر عمارته وطبيعة علاقته بمدينة "شالة" أو "سلا" - كما يسميها المغاربة- يجد أنّها مستقاة من المصادر المرجعية لتاريخ المغرب والأندلس - وهي على الإطلاق- ودون تفصيل مرجعي بخصوص نصوص الإحالات: "المعيار المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" لابن عذارى المرّاكشي، و"المعجب في تلخيص أخبار المغرب"، لعبد الواحد المرّاكشي، و"المقدّمة" لابن خلدون، كذلك "تاريخ ابن خلدون"، وكتب أخرى موسوعية مثل "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" للناصري و"نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب للمقري" الذي كان من المصادر التي كشف صاحب الرحلة عن تناصه مع مادّتها التاريخية، حيث ذكر قائلا: "وقد تذكّرت هنا قصّة أوردها المقّري في كتاب نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب (١/٢٤٣)، مفادها "أنّ هارون الرشيد وفد بين يديه

١- عبد القادر، سرد الأتاي، ص ٤٠.

بعض أهل المغرب..."[١]. أيضاً أشار إلى اقتباسه عن كتاب "المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب" لأبي عبيد البكري (تــ٤٨٧هــ)، حين وصف مدينة وجدة بقوله: "هي مدينة كبيرة مشهورة قديمة كثيرة البساتين والجنات، والمزروعات والعيون، طيّبة الهواء جيّدة الغذاء"[٢]. وتتعدّد أشكال التناص مع المصادر المرجعية في شكل تذكّر، وهو ما بدا من خلال التعامل مع مصنّف "نفح الطيب" وكتاب البكري "المُغرب"، ومصادر أخرى في شكل رواية ونقل لشخصيات ثانوية، مثال ذلك: "...تطوان التي ذكرت لعيالي ما رواه الرقيق القيرواني في "تاريخ إفريقية والمغرب" من أنّ عقبة ابن نافع رحل من طنجة إلى السوس الأدنى..."[٣]. وقد جاء هذا النقل أميناً، لاسيما أنّه وضع بين معقفين. ونفس النهج سلكه في نقله عن مصدر الحسن بن الوزّان (المكنّى بليون الإفريقي)، صاحب مصنّف "وصف إفريقيا"، فقد ذكر تاريخ تأليف هذا المصدر، وهو "بداية القرن السادس عشر للميلاد"، ونقل عنه ما اختصّت به مدينة وجدة، وذكر ما تنتج من الثمار والغرس، كذلك الشأن بالنسبة إلى بيان خصائص عوائد أهاليها ولباسهم[٤]، ومن حين إلى آخر ينفذ السارد – من خلال ذاك التناص إلى الحاضر– وإلى رصد امتدادات التاريخ في الزمن الرّاهن عبر انسياب شعري فيه استعادة وجدانية للتاريخ، وبحث دؤوب عن سحر المكان المستمدّ من تاريخه وصموده الناتج عن عظمته وعمق أصالته، وهو ما جعل زمن الرحلة منفتحًا على الزمن القديم وليفسح من ثمّ المجال

١- عبد القادر، سرد الأتاي، ص ٨٩.
٢- نفسه، ص ١٠٩. يُنظر كتاب: البكري، "المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب"، مكتبة المثنى بغداد، (د.ت)، ص ١٩٩ وما بعدها.
٣- نفسه، ص ٩٧.
٤- نفسه، ص ٣٩.

لاستمرار نسق الاستكشافات عبر استرسال نبض الرحلة مُظهـرًا ألـق ذاك الحضور وما يقابله من مظاهر الغياب التي أنتجتها حركة التاريخ وتحـوّلات الحضارة، ذلك ما يمكن أن نستقيه من تأكيده: "وللمدينة (وجدة) تاريخ قديم، فقد احتفلت بألفيتها الأولى ١٩٩٤م، ولها تاريخ من النضال ضدّ الاستعمار الفرنسي..."(١). لقد دمج هنا التاريخ القديم في الجديد وقام بالقفز على أزمنته، ليقارب بين أحداث متباعدة عبر ضرب من الحذف، هدفه في ذلك البحث عن تسلسل لأحداث التاريخ وتقاربها، ليكتشف دورانها، وقد ظلّ غالبًا على ذاتها، وفق نفس المنطق والقانون الذي حكم حركته، كما جرت في كلّ مدن بلاد المغرب والأندلس؛ نشأة عسيرة فرقيٌّ، ثمّ ازدهار، فعظمة وقوّة مجد وسيادة، فضعف، فاندثار، لتنشأ بعد ذلك دول أخرى، وبين هذا وذاك وقفة للزمن السردي لنسق الحكي، تلوح في شكل إطلالة شعرية على معالمه، ولا تكتفي تلك الوقفة باستدعاء التاريخ سرديًا، مثال ذلك: "... مازالت فوهات المدافع المنصورية فوق الأسوار تحكي صفحات... وتكاد الأقواس والأبواب والممرّات المزخرفة بالنقوش، تنطق بلسان فصيح لتروي للأجيال ما عاشته من ملاحم تاريخية"(٢). ليدخل في تناص مع المادّة التاريخية، يدمج الإحساس الذاتي وما يرتبط به من أحكام جمالية في تفسير حركة التاريخ، إذ استنتج على نحو من الاستقراء "كيف أنّ المرنيين لم تمتدّ إليهم الآفة التي دبت في الدول المتعاقبة (...) حيث كانت كلّ دولة تطمس آثار من سبقوها، لتنسب الفضل إليها، ويبدو أنّ هيبة الآثار الرومانية وجمالها أجبرهم على المحافظة على هذا السور الجميل، فأحاطوا المباني الرومانية بسور مريني جميل"(٣)،

١- عبد القادر، سرد الأتاي، ص ١١٠.
٢- نفسه، ص ٤١.
٣- نفسه، ص ٤٦.

ومن ثمّ يشرك السارد القارئ أو المروي له معه، ويحـاوره لإدراك أسـرار المسجد الذي بناه أبو يوسف يعقوب المريني، وهو ما يظهر من قولـه: "... وسوف يبهرك أن تجد عمودًا من الرخام بين بوابتي المسجد، مازالت تحتفظ بشيء من الألق... قد تقول مازحًا: إنّه رخام إيطالي أصيل، ولكن التـاريخ يرد مؤكّدًا أنّ هذا العمود الرّخامي جلب من إيطاليا في اتفاقية بين الـدولتين من عجائب المعاملات بين الشعوب، إذ كان مبدأ التفاوض قائمًا على مبادلـة كيلو من الرخام بمثله من السكّر!!! بعد هذه السنوات الطويلة، ونحن نشـاهد هذا العمود الرخامي، يمكننا أن نجزم (بمثل) هذه المقايضة التجارية"(١). هكذا يبدو حضور الذّات الساردة وخصوصية وعيها اللّافت بـالمروي لـه، فهـي تشرّكه وتحاوره، إذ تتوجّه إليه بالخطاب: "سوف تجد بالقرب مـن المسـجد مقبرة لدفن ملوك بني مرين"(٢)، وتستبق تساؤلاته، مثلما مرّ ذكره: "قد تقول". معنى هذا أنّ "الرّحالة يهمّه إشراك المتلقّي معه في المعرفة التي هو حامـل لها"(٣). وهو ما يقتضي من مؤلّفها -أحيانـًا- أن يكيّـف صـياغة الحـدث التاريخي بحسب منطق السرد، أو لنقل "شعرية خطاب الرحلة، إلى حدّ يبـدو معه ناطقًا، وهو ما لاح من قوله السابق: "ولكنّ التاريخ يؤكّد جادًّا".

هكذا كانت تجري كتابة رحلة الذّات في طلب العلم، وتتمّ محاولة قـصّ أقوالها وأفعالها، وتصوير مشاهداتها، عبر ضرب من الجمـع والمزاوجـة، يتناص خطابها مع مصادر التاريخ والذاكرة الشفاهية بأساطيرها الجميلة وما تحمله من مظاهر الغريب والعجيب، ويتدخّل المتخيّل ليطبع فعل بناء الرحلة الأدبية العلمية وإنشاء خطابها السردي.

١- عبد القادر، سرد الأتاي، ص ٤٧.
٢- نفسه، ص. ن.
٣- يقطين، خطاب الرحلة، ص١٧٩.

المحور الثاني: شعرية التخييل

لقد تنوّعت ضروب استدعاء نتاج ملكة التخييل؛ من حكايات أسطورية ووقائع عجيبة وأخبار مفارقة للواقع، وقد أبدى الرحّالة حرصًا على توظيفها وإعادة إدماجها في البنية السردية لخطاب الرحلة، ومن ثمّ الانفتاح في بناء مكوّنات هذا الخطاب لنصّ "سرد الأتاي" على إمكانات عمل المتخيّل السردي في أبعاده المفارقة للواقع ولمنطق التاريخ، بهدف تشكيل عالم حكاية الرحلة ونسج اكتشافاتها، التي قد تجئ في مواضع مطابقة للواقع والتاريخ، متمثّلة لمبدأ قول "شهادة حقّ في المغرب"، كما جاء على لسان صاحب الرحلة، وفي مواضع أخرى تتشكّل تحت سطوة انزياحات اللغة وتفاعلات الذّات وفعل التخييل الذي يبدو حضوره ضروريًا في كلّ خطاب أدبي شعري أو سردي. إذ يعدّ معيار الكتابة التخييلية ومرجعها في الرحلة أساسيًا، وهو مقدّم على اعتماد مصادر التاريخ أو الرغبة في مطابقة القول للواقع، ومن ثمّ تبدو البنية النصيّة لخطاب الرحلة – وفق هذا المنظور – بمثابة "جنس أدبي، يقوم على محكي السفر، كما أنّ أنماطه وأنواعه توظّف هذا المحكي بصيغ مختلفة وأساليب متنوّعة"[1]. وفي هذا ترى بعض الدراسات النقدية التنظيرية أنّ "وجود ثيمة السفر، أو الارتحال، في نصّ ما لا يولّد بالضرورة متنًا رحليًا، فالرحلة أو النصّ المنتمي إلى أدب الرحلة، يجب أن يكون نابعًا من بنية السفر (والمتمثّلة) في هيمنة للثوابت التي تصدر عن هيمنة للبنية المفرزة لمتغيّرات نوعية، تأخذ خصائصها المميّزة في أنواع المتن الرحلي. إنّها

١- مؤدن (عبد الرحمن)، الرحلة في الأدب المغربي، النصّ- النوع – السياق، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، ٢٠٠٦م، ص ٦.

الثبات في التغيير، والسفر المهيمن والتنويعات السردية"[١]. وهكذا يعمل ضمن تلك التنويعات نسق التخييل الذاتي، "من حيث هو إيهام بالواقع (أو ذاك) الوجه المقابل للواقع مضادّ له"[٢]، إمّا بوصفه مكوّنًا سرديًا لمتن خطاب الرحلة، أو من جهة كونه آلية لإنتاج محكي الرحلة وإنشاء خطابها وفق منظور الذات الساردة، التي تتحكّم في نسق إنتاجه للخطاب. ذلك ما يمكن ملاحظة حضوره القوّي في نصّ "سرد الأتاي"، حيث عوّل عليه السارد في مواضع مختلفة ومحورية من بنية الخطاب السردي لرحلة "سرد الأتاي"، فبدا ذا وظيفة مركزية في تحديد أدبيتها.

ويكفي للاستدلال على وجاهة هذا الاستنتاج المتعلّق بمكوّنات شعرية خطاب رحلة "سرد الأتاي" ممثّلة في مستويات حضور التخييل، التطرّق إلى خصائص العناصر السردية المكوّنة لمتن خطاب حكاية الرحلة، ففي الطريق إلى مرّاكش كان المرور ببني ملال، التي هي بحسب المؤرخين والباحثين "انفتاح على التاريخ (لكونها) من أقدم الأماكن التي عمّرها الإنسان في شمال إفريقيا وتؤكّد هذه الفرضية الكهوف المنتشرة في المدينة"[٣]. ويتدرّج السارد من التاريخ إلى محكي المتخيّل الجمعي؛ إذ أورد : "يقال إنّ الأجداد القدماء كانوا يستعملون هذه الكهوف للاختباء من العدو في الحرب التي كانت رحاها دائرة بين القبائل"[٤]. لنلاحظ هنا كيف تمّ التدرّج من التعاطي مع المادّة التاريخية إلى التفاعل مع محكي الحياة الجماعية في بعدها الأسطوري الشفاهي فحين وصل طنجة، وأرشدوه إلى زيارة "مغارة هرقل"، تساءل

١- مؤذن (عبد الرحمن)، الرحلة في الأدب المغربي، ص ٦، ٧.
٢- معجم السرديات، ص ٧٤.
٣- عبد القادر، سرد الأتاي، ص٦٥.
٤- نفسه، ص. ن.

صاحب الرّحلة وبعض مرافقيه "عن علاقة هرقل بالمغرب؟"[١]، يقول: "أجاب المرشد السياحي: كلّ شيء بدأ من المغرب، أعجبت بمنطق الرّجل!"[٢]، ويسترسل في القصّ: "حين وقفنا أمام مصدر النور، أصبنا بالانبهار، فإفريقيا كلّها أمامنا، أعني خارطة إفريقيا، فالمغارة تنتهي بفتحة من نور يمكنك دون عناء أن تكتشف أنّها تشبه إلى حدّ كبير خريطة قارّة إفريقيا. قال مرشدنا: ألم أقل لكم بدأ الخلق من هنا!!"[٣]، ويعقّب السارد: "تعجّبت من هذا المنطق، ولأنّي أحبّ أن استمع تركت له المجال ليكمل خرافاته... أحسست أنّ خرافاته فوق الاحتمال"[٤]. وهنا أمكن القول: إنّ التلقّي للأسطوري العجيب -الذي ارتقى في هذا المقام السردي إلى مستوى الخرافة- لاقى اعتراضًا من قبل السارد لتنافيه ومبادئ العقل ومنطق الواقع، لكّنه قبله فقط في مستوى الاستمتاع ولحبّ الاستطلاع، أي تحت وقع الرغبة الذاتية في الحكي بهدف المتعة، لا طلبًا للمعرفة والحقيقة، إذ السرد فنّ في ذاته يُطلب لهدف إنتاج الفنّ والجمال بعيدًا عن أيّ حاجة نفعية.

لكن في مقام حكي آخر بدأ السارد متجانسًا مع الإرث الأسطوري، متمثّلا في حكاية الشجرة القديمة الواقعة في اتّجاه مدينة إيفران التي "لها طريقان، أحدهما عبر الغابة، والآخر عبر مدينة أزرو . وهذا الأخير يقودك إلى أقدم شجرة معمّرة في إفريقيا، وهي شجرة (أرزكارو)، وحولها القرود تتقافز وتتدافع بين جموع السياح للظفر بما يجدون به"[٥]. نلاحظ كيف جمع هنا بين حكاية عراقة الشجرة والاحتفاء بجمال مشهدها وما يحيط بها اليوم.

١- عبد القادر، سرد الأتاي، ص ٨٩.
٢- نفسه، ص. ن.
٣- نفسه، ص ٩٠.
٤- نفسه، ص. ن.
٥- نفسه، ص ٧٧.

والأمر نفسه يتعلّق بوضع نصف تمثال روماني في مدينة "شـالة"، "فبراعـة نحته وإتقان صنعه ودقّة تفصيله، تجعلك تجزم أنّه تمثـال امـرأة، ولسـوف يخبرك المغاربة أنّه تمثال زوجة الحاكم الروماني، ثمّ يضيفون بشـيء مـن الزهو إنّها مغربية من البربر"[١]. وهكذا أمكن أن نستنتج كيـف أنّ السـارد ينفتح في تصويره للفضاء الخارجي ومشاهداته على العجيب -من جهة كونه- "أحداثًا أو ظواهر خارقة لا يمكن تفسيرها عقليًا"[٢]. ويرتقي الاحتفاء بسـحر المكان وعجيب أسراره إلى ضرب من التصوير الاستعاري المكني لأشيائه، ومثال ذلك: عند زيارة شالة كان الحديث عن أشجارها بالقول: "وعجائب هذه الأشجار لا تنتهي، إلّا حين ترفع رأسك على قممها، فترى أعشـاش طيـور اللقلق وطائر البقر، تلك الطيور التي تأسرك ببياض ريشها الناصـع، وكبـر حجم أعشاشها، وكثافة أعدادها، وهي فوق ذلك كلّه في هجرة مستمرّة ذهابًـا وإيّابًا بين قارّتي أوربّا وإفريقيا، تنقل للطير من كلّ جنس ألف خبر وخبر عن شالة، داعية إلى الزيارة، ناقلة البشارة، بأنّ شـمس الحضـارات لا تغيـب أبدًا"[٣]، لننظر هنا كيف انطلق من وصف بدا طبيعًا، يوافق منطق الأشـياء ووضع الأشجار وما على قممها من أعشاش الطيور، ليرتقي بذاك الوصـف إلى ضرب من الاستعارة المكنية، حيث نسب إلى الطيـور الفعـل الـواعي والقول ممثلا في الدعوة إلى زيارة هذه المدينة، والإنباء بأنّ شمس الحضارة لن تغيب عن تربتها.

١- عبد القادر، سرد الأتاي، ص ٤٦.
٢- معجم السرديات، ص ٢٨٥. وأنظر تنظير تودوروف لأشكال حضور العجيـب فـي الأدب السردي، على الأخصّ، في كتابه: مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة الصـديق بوعلّام، مراجعة محمّد برّادة، ط١، القاهرة دار شرقيات للنشر والتوزيع، ١٩٩٤م.،
٣- نفسه، ص ٤٩.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد : فقد انتهيت – بفضل الله وتوفيقه – من إعداد هذا البحث ، وهكذا، أمكن لنا القول في خاتمته ، إنّ هذا النموذج في القراءة والتحليل الّذي أنجزنا حول نصّ "سرد الأتاي" (رحلة خليجي في المغرب) للكاتب علي عبد القادر جاء بمثابة بحث في مظاهر شعرية السرد وجماليات أسلوب الكتابة وفنّ القصّ الذي عانق المتخيّل وتناص مع التاريخ وجاور الأسطورة، بما جعله يندرج ضمن ضرب من شعرية التخييل، حيث دمج التاريخ والأسطورة ونتاج الذاكرة في ضرب من البناء الفنّي لنصّ في "أدب الرحلة"، انفتح على كتابة الذات، دون أن يسقط في وهم المطابقة أو ادّعاء قول الحقيقة عن الذّات، فهو أراد أن يقول فقط "شهادة حقّ في المغرب".

ولهذا.. ، كان مدار بحثنا على مشكل الجنس الأدبي لنصّ "سرد الأتاي" ما بين "أدب الرحلة" وشكل "السيرة الذاتية"، من خلال تفاعلاته اللفظية (الكلامية والكتابية) والتداولية التي تتجاوز دلالاتها الإشارات اللغوية والبنية الشكلية للخطاب السردي ومن ثمّ واشتغلنا على نماذج من شعرية التناص والتخييل بوصفهما من مقوّمات البناء الفنّي لهذا العمل الأدبي، حيث أظهرنا كيف أنّهما من أبرز وجوه شعرية خطابه. وهنا تجدر الإشارة إلى إنّ البحث في مدى مطابقة نصّ الرحلة من جهة كونه تأليفا أراده صاحبه "شهادة حقّ في المغرب"، لم يكن محلّ اهتمام مركزي في دراستنا هذه، ويبقى ثمة مسائل تحتاج إلى بحث آخر، وذاك قدر الدراسات الأدبية والنقدية، فهي تكمل بعضها، وتتطوّر من خلال الاستدراكات، واستئناف فعل النقد والقراءة.

*أهمّ المصادر والمراجع

- الحقيقة الملتبسة: قراءة في أشكال الكتابة عن الذّات، الدّار البيضاء، شركة النشر والتوزيع الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٧م.
- الداهي (محمّد)، شعرية السيرة الذهنية، الدار البيضاء، فضاءات مستقبلية، ٢٠٠٠م
- الغامدي (صالح معيض)، كتابة الذات، بيروت، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي،٢٠١٣م .
- المرّاكشي (محمد صالح)، مفهوم الرحلة، حوليات الجامعة التونسية، رقم ١٧، يناير، ١٩٧٩م.
- حليفي (شعيب)، الرحلة في الأدب العربي: التجنيس...آليات الكتابة.. خطاب التخييل، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، ط١/ ٢٠٠٦م
- خطاب الرحلة، مجلة علامات في النقد، يصدرها النادي الأدبي الثقافي بجدّة، سبتمبر، ج٩، م٣/ ١٩٩٣م .
- عبد القادر (علي)، سرد الأتاي، رحلة خليجي في المغرب، دبي، مركز القارئ العربي للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م.
- لوجون (فيليب)،السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم عمر حلّي، ط١، بيروت، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣م.
- معجم السرديات، عمل جماعي بإشراف الأستاذ محمّد القاضي، تونس، ٢٠١٠م.
- مفتاح (محمّد)، دينامية النصّ، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط١/ ١٩٩٠م .
- مؤدن (عبد الرحمن)، الرحلة في الأدب المغربي، النصّ- النوع – السياق، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، ٢٠٠٦م.
- يقطين (سعيد)، السرديات والتشكيل السردي، بيروت، الدّار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢م.

Genette. Palimpesetes. Paris.Ed. Seuil. 1983

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

فهرس الموضوعات

م	الموضــوع	الصفحة
١-	ملخص	٤١٨٥
٢-	Abstract	٤١٨٦
٣-	مقدمة	٤١٨٧
٤-	التمهيد : (النصّ ومنوال قراءته)	٤١٩١
٥-	المبحث الأول : مسألة تجنيس نصّ الرحلة	٤١٩٩
٦-	المبحث الثاني: شعرية التناص والتخييل، ويشتمل على محورين:	٤٢١٥
٧-	المحور الأول : شعرية التناص	٤٢١٩
٨-	المحور الثاني : شعرية التخييل	٤٢٢٦
٩-	الخاتمة	٤٢٣٠
١٠-	أهمّ المصادر والمراجع	٤٢٣١
١١-	فهرس الموضوعات	٤٢٣٢

تم بحمد الله